

✽ المستشرقون والسنة الشريفة: عرض ونقد من خلال عينات

The orientalists and the Sunnah of the Prophet Muhammad (Peace be upon him)

✽ أ.د شافية صديق^{*}

جامعة الجزائر 1 بن يوسف بن خدة، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

c.seddik@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 2025/02/16 تاريخ القبول: 2025/05/10 تاريخ النشر: 2025/07/01

ملخص:

اهتمام المستشرقين بالسنة والحديث الشريفين كان مرتبطا بالطعن في عصمة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ومصدر الوحي. وكانت مناهجهم متنوعة ظاهريا، تصب كلها في البحث في تفاصيل العلوم الإسلامية المرتبطة بالسيرة والحديث عن محطات ومواقع ينفذ منها شكهم وطعنهم.

من جانب آخر اهتم بعض المستشرقين بتيسير الوصول إلى الأحاديث والسيرة للمستشرقين والباحثين الغربيين والتأليف في هذا الاتجاه، حتى أضحت هذه الكتابات هي المصدر الحصري. هل استطاع المسلمون توفير المادة العلمية حول الحديث والسيرة للباحثين، مدعمة بالشروح العلمية الدقيقة، مع الردود المحينة على شبهات المستشرقين ومن اتبعهم في المنهج من المسلمين: لم يعد المسلمون يتمتعون بحرية الاختيار إذ أضحى الدفاع عن الحديث والسيرة فرض عين لمن اجتهد وعلم التحديات الدينية والأخلاقية والمعرفية، التي تحيد بهاتين الركيزتين للدين الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: السنة النبوية، الاستشراق، أجناس جولديسهر، جوزيف شاخت، مصطفى السباعي، مصطفى الأعظمي.

Abstract:

The attention and the interest of Orientalists in the Sunnah and Hadith was related to questioning the infallibility of the Prophet Muhammad (peace be upon him) and the source of revelation. Their methodologies were apparently diverse but ultimately aimed at scrutinizing the details of Islamic sciences related to the Prophet's biography and Hadith, seeking points of doubt and criticism. Never the less, some Orientalists focused on facilitating access to Hadith and the Prophet's biography for Western researchers, producing works in this direction to the extent that these writings became the exclusive source on the subject. Thus, have Muslims been able to provide well-researched academic material on Hadith and the Prophet's biography, supported by precise scholarly explanations and updated responses to the doubts raised by Orientalists and those who followed their methodology among Muslims? Then, Muslims have no choice except defending the Hadith and the Prophet's biography which become an individual obligation for anyone who is aware of the religious, ethical, and intellectual challenges threatening these two pillars of Islam.

مقدمة

منذ ظهور الحق على الأرض وجد من يقف في طريق انتشاره، فالشيطان أقسم أن يكون قائدا لتلك الحرب، مصرًا على إغواء من يخاصم فطرته، وعندما بعث الله رسوله خاتما لمرحلة الرسالة مثبتا لما جاء به الأنبياء وجد من يعاديه ويشنّ عليه الحروب المادية والعقدية والفكرية.

في مرحلة ذهول المسلمين عن فريضة الاستخلاف، تهاوت عليهم الجيوش تريد محوهم أو تحويلهم إلى مجرد عبيد من غير كرامة ولا دين صحيح. الاستشراق ليس إلا جزءا من تلك الجيوش، وكانت حروبه حروب يقين تهدف الصميم الإسلامي، استخدم العلم والمنهج في الاتجاه الذي يخدم مقاصده البعيدة تماما عن عقائد و يقينيات المسلم.

لمحاولة أداء واجب الأمانة الدينية والعلمية، تم تقسيم العمل إلى عناصر تساعد على فهم تضاريس الموضوع الشائك المتجدد، والمتعلق بالأمن العقدي والفكري للمسلم، وبعبارات أدق بحياته ومماته، فالدين نجاة الإنسان، وصحيح الدين هو هدف كل من فهم آيات أولى الألباب.

1- تبيئة الموضوع في الفضاء الإسلامي عبر التنبيه إلى أن شبهات المستشرقين في فضائنا تتيحها الوسائط الجديدة التي يتقن أعداء الإسلام توظيفها.

2- التعريف بالسنة الشريفة حجيتها.

3- التعريف الإجرائي للاستشراق.

- 4-اهتمام الاستشراق بحجية السنة.
- 5-الاعتراف بإسهامات بعض المستشرقين في بعض جوانب خدمة التراث.
- 6- حصر أهم شبهات المستشرقين حول حجية السنة.
- 7-عينة اليهودي المجري أجناس جولديسهر.
- 8-عينة المسيحي الألماني جوزيف شاخ.
- 9-نماذج من ردود المسلمين: مصطفى السباعي ومصطفة الأعظمي رحمهما الله
- 10-حوصلة وخاتمة وظيفية

أولاً: التبيئة.

عبور الشبهات الاستشراقية عبر النوافذ المحلية: المستشرقون لا يكتبون للمسلمين ولكن أفكارهم تنتقل إلى المبهورين بالغرب والباحثين عن مكان ما تحت ظلاله، فكتبوا أفكار الاستشراق وراحوا يشوئها بين المسلمين تحت واجهات قد تخدع الغر: كالتجديد والتحديث والأنسنة وغيرها من الكلمات الفضفاضة. أخطر هذه الكتابات ما كتب باللغة العربية واللغات الإسلامية كالتركية والفارسية والأوردو وغيرها، ووظف التراث الإسلامي بطريقة مغرضة، يضاف إليهم من يكتب باللغات الغربية ثم تنقل كتاباتهم إلى اللغة العربية أحياناً في ترجمات ركيكة. (محمد أركون نموذجاً).

العناوين تتكاثر أثناء مرور الأمة بالأزمات المزلة لاستقرارها، فتخرج تلك الأصوات في غفلة من علماء الأمة والناخبين من المسلمين.

أمثلة:

أضواء على السنة.

مكتبة القرآنيين بكل فروعها الهندية والمصرية.

مكتبة الأحمدية.

مكتبة البهائية.

وأيضاً كتب الأفراد: كـ بعض كتب جمال البنا ومحمود أبو رية وخليل عبد الكريم ومحمد النويهي وصالح أبو بكر وغيرهم، وهم لا ينشرون أفكارهم عن حجية السنة في كتب بعينها، بل يجد القارئ تذكيراً واستشهاداً بأفكارهم في كل كتبهم. وكل هذا وغيره متاح بسهولة على شبكة الأنترنت، وبعضه متاح قراءة سمعية، وبعضه يتم الترويج له عبر التلخيص والنشر وغيرها من وسائل وأساليب نشر الأفكار اليوم.

لم يقف علماء الاسلام مكتوفي العقول والأفلام، بل لاحقوا الأفكار التي تروم هدم الإسلام عن طريق التشكيك في حجية السنة بادعاءات كاذبة، تلفق بأدلة هشة، وشواهد مطعون في صلابتها المنهجية قبل الدينية، وكل هذه التحديات تفرض على المسلمين ملاحقة الشبهات وتحيين الردود.

ثانيا: التعريف بالسنة الشريفة وحجيتها

السنة في ملخص ما جاءت به القواميس هي الطريقة دون توصيف إيجابي ولا سلبي، ولكن التداول العام يتجه بها إلى الوجهة الإيجابية. في القرآن الكريم: كلمة سنة بمعاني متقاربة وعلى سبيل المثال اعتبر المفسرون عبارة سنتنا الأولين في الآية 55 من سورة الكهف تذكير بالقانون الإلهي في معاقبة من يكفر بالله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَوَّلَينَ أَوْ آخِرُهُمُ الْعَذَابُ فَبَلَكَ﴾

وفي صحيح مسلم في كتاب الزكاة: من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده. من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده. من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.

السنة في معجم مصطلحات علوم التخصص هي قول النبي ﷺ وفعله وتقريره وتستخدم كنقيض للبدعة. جاء في إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول: وأما لغة فهي الطريقة المسلوكة وأصلها من قولهم سنت الشيء بالسن إذا مررت عليه حتى يؤثر فيه سنا أي طريقا.

وأما شرعا: أي في اصطلاح أهل الشرع فهي قول النبي ﷺ وفعله وتقريره وتطلق بالمعنى العام على الواجب وغيره في عرف أهل الفقه يطلقونها على ما ليس بواجب وتطلق على ما يقابل البدعة⁽¹⁾

وبيضيف: اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام.⁽²⁾

وجاء في كتاب الموافقات لأبي اسحاق الشاطبي: يطلق لفظ السنة على ما جاء منقولا عن النبي ﷺ على الخصوص مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز، بل إنما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام كان بيانا لما في الكتاب أولا. ويطلق أيضا في مقابلة البدعة ويطلق أيضا لفظ السنة على ما عمل عليه الصحابة وجد ذلك في الكتاب أو السنة أو لم يوجد لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا، أو اجتهدا مجتمعاً عليه منهم أو من خاقائهم، فإن إجماعهم إجماع وعمل خلفائهم راجع أيضا إلى حقيقة الإجماع من جهة، حمل الناس عليه حسبما اقتضاه النظر المصلحي عندهم، فبدخل تحت هذا الإطلاق المصالح المرسله والاستحسان كما فعلوا في حد الخمر وتضمين الصناعات وجمع المصحف... ويدل على هذا

الإطلاق قوله عليه الصلاة والسلام عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين... رتبة السنة التأخر عن الكتاب في الاعتبار والدليل.

1. الكتاب مقطوع به والسنة مظنونة والقطع فيها انما يصح في الجملة لا في التفصيل بخلاف الكتاب فانه مقطوع به في الجملة والتفصيل

2. والسنة بيان للكتاب أو زيادة على ذلك .

3. وما دل عليه من الأخبار والآثار كحديث معاذ، فإن لم تجد قال اجتهد رأيي⁽³⁾.

يلاحظ: في معجم مصطلحات العلوم الإسلامية نجد التعريف الخاص بالمحدثين وبالأصوليين وبالفقهاء.

وهذه التفرقة هي عملية اجرائية ستتشعب لاحقا إلى فروع جدلية، يختص بفك خيوط شبكات

أهل الاختصاص، لكن الجميع يشترك في الاعتقاد الراسخ في اصطفاء وعصمة النبي محمد ﷺ.

المحدثون ربطوها عضويا بأفعال وأقوال وتقريرات خير الأنام، دون تمييز بين ما ارتبط منها بحكم

شرعي أو لم يرتبط بحكم شرعي أو لم يرتبط، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قدوة المسلمين ومرجعيتهم

في الفضائل والسلوك وقرارات حياتهم ومآثمهم، لذلك هم يتتبعون كل تفاصيل حياته ليرصدوها ويحفظوها

نظريا وعمليا ومحبتهم للنبي وإدراكهم بأن الله اصطفاه منذ كان في عالم الغيب يلاحق المؤمنون تلك

التفاصيل حتى في فترة ما قبل البعثة إذ فيها أيضا دلائل النبوة الناصعة.

في معجم مصطلحات الأصوليين يلاحظ التركيز على الجانب التشريعي المؤسس لمنظومة الأفعال

والأقوال المعيارية، التي تنظم حياة المسلمين في جميع تفاصيلها ما ارتبط بالأفراد والجماعات والمجتمعات،

فتتبعوا تفاصيل حياة الرسول فعلا وقولا وتقريرا ليستمدوا منها قواعد تأسيسية لتصرفات المكلفين من إباحة

ووجوب وتحريم.

في معجم مصطلحات الفقهاء مع ما يميز هذا الفرع الهام أيضا في حياة الأفراد والمجتمعات، ركز

الفقهاء على ما يؤسس لمصدرية الأحكام الشرعية الضرورية في حياة المسلمين، ومن عاش تحت أحكام

الشرعية الإسلامية من أهل الذمة وغيرهم. فالرسول مبلغ جاء في القرآن الكريم كآلية 2 من سورة

الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

مُتَّبِعِينَ﴾

ويصنف الفقهاء الأحكام باعتبار درجتها أو مستوياتها الخمسة إلى ما يعرف ب: الفرض

والمندوب والحرام والمكروه والمباح. وهذه أيضا تصنيفات دقيقة تتخللها شبكات تفرعية لم يتأخر علماء

المسلمين من سد ثغرها.

من حيث المبدأ، الاختلافات ليست في مكانة السنة عند علماء هذه المساقات العلمية بل في تسليط الضوء على تفعيل زوايا استثمارها بما يفيد الناس في دينهم ودنياهم.

ثالثاً: التعريف الاجرائي للاستشراق:

هناك العشرات من التعريفات للاستشراق ولكن الغريب رغم أن تاريخ ظهوره يعود إلى قرون سابقة تحت مسميات أخرى، ولكن بنفس الحمولة يصير الكثيرون على استعراض التعريفات التي تتشابه في عمقها ولا تختلف إلا باستعمال مفردات ليست متباعدة، لذلك يمكن اختصار التعريف الاجرائي للاستشراق في: دراسة غير المسلم لتراث المسلمين المادي وغير المادي وفق مناهج غربية وبمقاصد متنوعة.⁽⁴⁾

ويمكن ايجاز دوافع الاستشراق في:

- 1-الدافع الديني: معرفة الإسلام لتشويهه من أجل ثني اليهود والمسيحيين عن اتباعه وإخراج المسلمين منه بإثارة الشبهات.
- 2-الدافع الاستعماري السياسي المخابري من أجل السيطرة على العالم الإسلامي وخيبراته من مواقع استراتيجية وخيبرات فوق الأرض وتحتها وباليد العاملة؛ مثال حملة نابليون والآثار والبصمات التي تركتها، منها كتاب وصف مصر والتعاون العلمي الذي بدأ عملياً بأوائل دفعات المبتعثين إلى الدراسة في فرنسا، وبصناعة رموز تخدم أهداف الاستشراق كطه حسين من خلال كتاباته ومناصبه، ومثال المستشرق والياسوس الشهير بعبد الله فيليبي، الذي إلى جانب خدماته لبلده كسياسي وعسكري قدم أيضاً وصفاً غير مسبوق للجزيرة العربية والأردن.
- 3-دافع التجارة والاقتصاد، وذلك قانون معروف في التجارة وهو ضرورة معرفة خصائص الزبائن المستهدفين من العمليات التجارية، لوضع الاستراتيجيات قصيرة وطويلة المدى لتتنقل البضائع والخدمات، وهذا لن ينجح من غير معرفة التركيبة النفسية للمشتري أو البائع.
- 4-الدافع الثقافي المتمثل في نشر ثقافة معينة كما يحدث مع التكتلات المبنية على لغات وثقافات الفرنكفونية نموذجاً.
- 5-الدافع الشخصي والمتعلق بهويات بعض الأفراد من مثقفين مستقلين أو استكشافيين ومغامرين، وبعضهم قد يمارس هواياته في إطار رحلاته الخاصة أو على هامش وظيفته العسكرية أو الدبلوماسية أو التعليمية أو التبشيرية وغيرها من العناوين الوظيفية.

ويمكن أن يستعمل المستشرق مناهج وأدوات بحث متنوعة ليست دائما متوافقة مع خصوصيات المجتمعات المدروسة، وأهم قنوات اتصال اجتهادات المستشرقين: الجامعات ومراكز البحث والكتب والمجلات والموسوعات والمقالات والمتاحف والمكتبات والارسلالات ووسائل الإعلام والاتصال، فالיום هناك الفيديوهات التوثيقية وحتى مواقع بذات الدوافع المذكورة سابقا.

أما عن اتجاهات المستشرقين في التعامل مع السنة والمواضيع المركزية في الفكر الإسلامي عموما، فيلاحظ هناك تداخلا لدى المستشرقين بين مصطلحات الشريعة والفقه والقانون الإسلامي، وهذا لأنهم لا يلتزمون دائما بالمصطلحات التي اتفق عليها المسلمون، فهم مستشرقون والإسلام لا يعينهم من حيث الاعتقاد.⁽⁵⁾

رابعا: اهتمام الاستشراق بحجية السنة.

عكف المستشرقون منذ طلائع الاستشراق على دراسة السنة والحديث من خلال أدوات وآليات علمهم: رصد المخطوطات وفهرستها وتحقيقتها، ترجمتها ودراسة مختلف محاورها بأدوات مناهجهم المختلفة، على أن الموضوعية تقتضي التذكير الملح بأن كل المستشرقين من مختلف خلفياتهم الدينية والأيدولوجية والعلمية يتفقون على عدم الاعتراف بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام وإلا لأصبحوا مسلمين، وانطلاقا من مسلمتهم هذه تعاملوا مع سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأحاديثه بعيدا عن التوقير والتقديس اللائقين بخاتم الأنبياء.

وتبعا لهذه الملاحظة لم يكن كل المستشرقين متعمدين السقوط في أخطاء منهجية فادحة في تعاملهم مع السنة والحديث، ولم يحركهم جميعا دواعي عدائية لهدم ركيزة أساسية في الدين الإسلامي (مع افتراض أقصى احتمالات بعض حسن النية)، ولكن أغلبيتهم العظمى كانوا جزءا من روح الثقافة الغربية القائمة على العنصرية والاستعلاء والصليبية. يجب أن يستحضر الباحث المسلم أن المستشرق لا يكتب للمسلمين، فالاستشراق علم غربي ثماره يتداولها المهتمون بالحضارة الإسلامية بمختلف مكوناتها من الأكاديميين أساسا ثم المهتمين من بني جلدتهم، أما عن حاجة مراكز القرار لمعارف المستشرقين حول العالم الإسلامي والمفيدة جدا في العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي، فإن تلك المعارف تمر إلى مراكز القرار عبر الاستشارات الدقيقة والسفارات المدروسة، لذلك نجد كبار المستشرقين عملوا ويعملون في مراكز مفتاحية في دائرة صنع القرار السياسي في دولهم: لويس ماسينيون الفرنسي وبرنارد لويس البريطاني الأمريكي الإسرائيلي من الأمثلة الجيدة.

نجد بعض شواهد اهتمام المستشرقين بالسنة في دائرة المعارف الإسلامية هذا المنتج المخوري في أدبيات المستشرقين، فقد ألف المستشرقون هذه الموسوعة في اثنين وثلاثين مجلداً، امتدت كتابة إصدارها الأول من 1913م إلى 1938م وإصدارها الثاني من 1954 إلى 2005م وتم تحريرها باللغات الأوربية الأساسية: الإنجليزية والألمانية والفرنسية، ومن أشرف على الطبعة الثانية المستشرق الهولندي ج. فنسنك A.J.WENSINCK

وهو صاحب كتاب في فهرسة الأحاديث: كنوز السنة وصاحب كتاب العقيدة الإسلامية النشأة والتطور وكانت أطروحته للدكتوراه حول محمد ﷺ واليهود في المدينة.

وهو محرر مواد الحديث والسنة في دائرة المعارف، أما مادة أصول الفقه فقد حررها المستشرق الألماني جوزيف شاخت الذي وضع أسس نظريات متهافة حول الحديث لكنها تحولت إلى مصدر مقدس لأغلب من كتب في مواضيع تتشابه مع الحديث و السنة في فضاء المستشرقين وفي فضاء من تبعمهم من أبناء الجغرافية الإسلامية كما حرر مادتي الأصحاب الخاصة بالتعريف بالصحابة وعلاقاتهم بالسنة و رواية الحديث ذلك بالإضافة إلى مادة السيرة .

ورغم تبيان مغالطات فينسك في بعض اجتهاداته حول الاسلام ديناً وفكراً إلا أن علماء المسلمين لم ينسوا الاعتراف باجتهاده الخاص في فهرسة السنة مما قد نصنفه ضمن: بعض الخير. (6)

خامساً: الاعتراف بإسهامات بعض المستشرقين في بعض جوانب خدمة التراث

كتب مصطفى السباعي عن المستشرقين: ما لهم وما عليهم وكتب علي إبراهيم النملة عن إسهامات المستشرقين في خدمة التراث، وقام بعض الباحثين المسلمين برصد إنتاج المستشرقين وتصنيفه حسب مجالات تغطيته لمكونات التراث الإسلامي ورصد لأوليات التحقيق لمصادر المسلمين ودرجات حياديته، ولم يخفوا أنه كان هناك مستشرقين لم تتلوث أقلامهم بحرب مدنسة على الإسلام، دون أن يعني هذا التسليم لهم بالعصمة، إذ هم يكتبون لبعضهم ومتفقين على نفي النبوة والتنكر للإسلام كدين سماوي ونصح بعض علماء المسلمين ان تكون قاعدة التعامل مع تراث المستشرقين الآية القرآنية: 8 من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ۚ

بَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝

مما يذكر: كتاب مفتاح كنوز السنة من إنجاز المستشرق الهولندي ا.ي فنسنك، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي. (7)

ويعرف بأنه فهرس حديثي مرتّب على الموضوعات والمعاني، وهذه الموضوعات مرتبة على حروف المعجم، فإذا أردت معرفة من خرّج الحديث فانظر للموضوع الذي يتحدث الحديث عنه، مثلاً: الاستسقاء، رمضان، الجنة، المساجد، ثم ابحث في الحديث الذي تريد، فهو ليس مرتباً على الألفاظ، وهذه الطريقة تفيد لمن لم يكن حافظاً لمتن الحديث الذي يبحث عنه، وقد جعله مؤلفه فهرساً لأربعة عشر مؤلفاً من مشاهير كتب السنة وهي: الكتب الستة، وموطأ مالك، ومسانيد أحمد، وأبي داود الطيالسي، وزيد بن علي، وسنن الدارمي، وسيرة ابن هشام، ومغازي الواقدي، وطبقات ابن سعد، مصنّفه المستشرق الهولندي أرنلد جان فنسنت ت. 1939م، وقد نقله للعربية الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، بتشجيع من الشيخ رشيد رضا الذي كتب مقدمته ومما جاء فيها: أهم محاور مقدمة رشيد رضا تحت عنوان: مهدوا السبل: يقول رشيد رضا:

1- إن حاجتنا إلى هذا الكتاب، وما في معناه في هذا العصر، لا يدل على تقصير علماء السنّة السّابّقين أو تغريظهم في شيء من خدمتها، فقد قاموا بكلّ ما يجب ويُنْدب ويستحب من رواية الحديث وحفظه وتدوينه في المسانيد والجوامع والسّنن الجامعة والخاصّة بالعقائد والأحكام، ووضعوا المعاجم لمفراداتها ولأوائلها لتسهيل المراجعة، وتركوا لنا ثروة واسعة في ضبط سنن نبينا وهدية وشماله⁽⁸⁾.

2- ثم انتقل تدراسهما من الجنوب إلى الشمال، فغني بها طائفة من الأوروبيين الذين عرفوا بلقب المستشرقين ومهدوا السبل لهما بما وضعوه من المفاتيح لألفاظهما، والفهارس المتنوعة لكتب التفسير والحديث وغيرها من الكتب العربية لتسهيل مراجعتها، حتى صار علماء المسلمين من العرب والأعاجم مضطّرين لأخذها عنهم واقتفاء أثرهم فيها. وهذا كتاب مفتاح كنوز السنة أحد نفائس هذه الكتب التي وضعها أحد هؤلاء الأعلام وأن ما وضعه لهم بإحدى لغاتهم، وأن عالمنا الإسلامي هو أحوج إليها من العالم الأوروبي، فعسى أن تنتفع به جميع شعوبه و تنهض بهم الحمية الدينية الى خدمة الاسلام⁽⁹⁾.

3- لو وجد بين يدي مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفر علي أكثر من نصف عمري الذي أنفقته في المراجعة، ولكنه لم يكن ليغنيني عن هذا الكتاب مفتاح كنوز السنة، إذ ذاك إنما يهديك إلى مواضع الأحاديث القولية التي تعرف أوائلها، وهذا يهديك إلى جميع السنن القولية والعملية وما في معناها.¹⁰

4- لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لْقضي عليها بالزّوال من أمصار الشرق⁽¹¹⁾

الاستشهاد بحديث مرفوع أن الله يؤيد الإسلام برجال ما هم مناهله. رواه الطبراني.⁽¹²⁾

وكان أحمد محمد شاكر محقق الكتاب قد بدأ ترجمته ثم توقف، ليتولى المهمة فؤاد عبد الباقي، ووضح محمد شاكر التالي:

- 1- وينسك هو أستاذ اللغات السامية في جامعة ليدن كتبه معجمه بالانجليزية⁽¹³⁾.
- 2- قابل محمد شاكر المستشرق ويقول عنه: " وجدته رجلا مطلعاً على السنّة اطلاعا ينذر أن نجده في مثله ".⁽¹⁴⁾
- 3- ويذكر محمد شاكر أن ادوارد ساخو من مدرسة اللغات الشرقية ببرلين قام بوضع فهرس للأحاديث الواردة في الطبقات الكبرى لابن سعد.⁽¹⁵⁾
- 4- أهمية كنوز السنة هي أنّه فهرس لثلاثة عشر كتاباً من أمّهات كتب الحديث، رتب فينسك كتابه على المعاني والمسائل العلميّة والأعلام التاريخية، وقسم كلّ معنى أو ترجمة إلى الموضوعات التفصيليّة المتعلّقة بذلك.⁽¹⁶⁾

وكمثال قريب على توجيه الدراسات في بعض الجامعات الغربية نحو محور حجّة السنّة، هذه أطروحة نوقشت في ديسمبر 2023 في المدرسة العليا ENS بمدينة ليون بفرنسا في تخصص الفلسفة، حول موضوع نقد المفكرين المسلمين المعاصرين للأحاديث من القرن التاسع عشر إلى القرن الواحد والعشرين، وليس هناك إحالة واحدة إلى مصدر باللّغة العربية، ولكن هناك بعض المراجع العربية المترجمة؛ لكن جولديسهر و شاخت يتكرّر ذكرهما في أهم مفاصل البحث واسم الطالبة عربي.⁽¹⁷⁾

سادسا: حصر أهم شبهات المستشرقين حول حجّة السنّة

المستشرقون لا يعتقدون بنبوة وعصمة النبي ﷺ ولكنهم يدرسون تاريخ السنّة وتفاصيل مناهج علماء الحديث في جمع وتصنيف الأحاديث. هم يتعاملون مع هذا التراث كجهد بشري حتى في المكونات التي يعتبرها المسلمون معصومة ومقدّسة؛ فالمستشرقون لا تعنيهم هذه الجزئية مثلما فعل بعضهم في دراساته للكتاب المقدس بمعزل عن مكانته عند أتباعه (جولديسهر مع التوراة و فلهاوزن مع الأنجيل مثلاً).

لسدّ الطريق أمام آثار المستشرقين في طعوتهم في السيرة والحديث بعدما أصبحت شبهاتهم تلاحق المسلمين في عقر غرفهم، بعد أن تُبسط ويُختار لنشرها من يحسن مخاطبة مسلم عصر الهزائم والتراخي العقلي والانطفاء الوجداني بلغاته العربية وغير العربية بل وحتى بلهجاته:

عملية رصد الشبهات شبيهة بمهمة طبيب التحاليل والأشعة وهو يلاحق مواطن المرض رصدًا لبني عليها الطبيب بروتوكول العلاج الناجح: رصد عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني الشبهات الخاصة بالحديث والسيرة في ثلاث وثلاثين شبهة:

1. النهي النبوي عن كتابة الحديث.
2. ادعاء النهي القرآني عن الإيمان بالسنة والعمل بها .
3. منع الخلفاء رواية الحديث وترديده.
4. تشدد الخلفاء في الرواية وحبس المكثرين منها.
5. حرق كتب الحديث.
6. تأخر تدوين السنة.
7. السنة دوّنت في قصور الأمراء.
8. الرواية بالمعنى دون اللفظ.
9. اقتحام السنة حواجز الغيب.
10. رواية السنة بشر غير معصومين .
11. ندرة الصحيح في محفوظ البخاري .
12. البخاري ومسلم لم يسلموا من النقد
13. السنة ليست وحيا.
14. ندرة الاستدلال بالحديث عند أبي حنيفة.
15. ضياع خمسمائة خطبة نبوية
16. مصدر السنة ليس معصوما.
17. الطعن في رواية السنة.
18. أمية أبي هريرة و تأخر إسلامه
19. نقد السند دون المتن.
20. ندرة المتواتر في السنة
21. ظنية السنة
22. هداية السنة ظرفية لا دائمة.
23. اليوم أكملت لكم دينكم .
24. الاكتفاء بالقرآن عن السنة.
25. عدم الاعتداد بالسنة في الدرس اللغوي.
26. مخالفة السنة للواقع المشاهد.
27. مخالفة السنة للعقل .

28. مخالفة السنة للقرآن .
29. الوضع في الأحاديث.
30. جامعوا السنة كتبوها مكرهين .
31. السنة لا تستقل بالتشريع.
32. منع العمل بأحاديث الآحاد.
33. السنة ليست حجة في الدين.⁽¹⁸⁾

الشبهات المرصودة هنا لم ترتب حسب درجة التكرار في كتابات المستشرقين ولا بناء على كثافة التحليل الخاص بكل شبهة، ولكن يبدو أن صاحب الرصد كان مدفوعاً أكثر بمحاجس الحصر وفقط.

سابعا: عينة اليهودي المجري أجناس جولديسهر

من الذين انتبهوا إلى أهمية السنة في صرح علوم المسلمين وقبلها في البناء العقدي للمسلم، المستشرق اليهودي أجناس جولديسهر، فخلفيته اليهودية المرتبطة بأهمية التصوص المكتوبة والشفهية في التراث الديني المرجعي، جعلته ينتبه منذ كتاباته الأولى إلى محورية السنة والحديث في تشكيل العقل المسلم والبناء الروحي له، ويكون الحفر في تضاريس السنة والحديث سيسمح بفهم الإسلام وعناصر القوة فيه، كما حاول تثبيت ادعاء أخذ الرسول مكونات أساسية في الإسلام من التراث اليهودي.

جولديسهر يعرّف السنة بأنها: " جوهر العادات وتفكير الأمة الإسلامية قديماً، وتُعدّ شرحاً لألفاظ القرآن الغامضة التي جعلتها أمراً عملياً حياً.⁽¹⁹⁾

تعريف جولديسهر ناقص جداً، ومؤكّد أن الأمر متعمّد وسيثبت التحليل ذلك.

أ. تعريف مقتضب بالمستشرق اليهودي المجري أجناس جولديسهر Ignaz Goldziher (1850-1921م)

ولد في المجر ثم سافر إلى ألمانيا؛ تحصل على شهادة الدكتوراه الأولى عام 1870م حول أحد الشراح اليهود للتوراة في القرون الوسطى تنحوم أورشليمي. ثم سافر إلى النمسا وهولندا لدراسات جديدة، وأقام فترة في القاهرة وسوريا وفلسطين، حضر بعض الدروس في الأزهر وتواصل مع علمائه.

عاد إلى بلده وتخصّص في الدراسات الإسلامية تدريسا وتأليفاً، وكان يتقن اللغات التركية والعربية والفارسية كان عضواً في مجامع علمية عربية، ونشر مقالات علمية في مجلات غربية وشرقية باللغات المجرية والفرنسية والعربية والإنجليزية والروسية والألمانية.

يقول د. عبد الرحمن بدوي في موسوعة المستشرقين: جولدسيهر استخدم المنهج الاستدلالي أكثر من استخدامه المنهج الاستقرائي.

بعض مؤلفاته:

1. الظاهرية.
2. مذهبهم وتاريخهم.
3. دراسات محمدية.
4. الإسلام والدين الفارسي.
5. مذاهب التفسير الإسلامي.
6. العقيدة والشرعة في الإسلام.
7. تحقيق كتب كتاب المعمرين للسجستاني⁽²⁰⁾.

ب- جولدسيهر وحجية السنة:

كتب جولدسيهر في التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وحقّق بعض المخطوطات كمخطوط "أعز ما يطلب مشتملا على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت مما أملاه أمير المؤمنين على عبد المؤمن بن علي رحمهما الله". صدر كتابه دراسات محمدية (21) عام 1889 و1890م، وقد استعرض في الجزء الثاني منه موضوع الحديث الشريف.

تبوأ اجناس جولدسيهر مكانة متفردة بين أوائل المستشرقين، ولا زالت كتبه بمختلف اللغات تنتشر وتقرأ ويرجع إليها في الدراسات الأكاديمية والعلمية، بل إن مقروئته بين الباحثين المسلمين لم تمنعها عشرات الدراسات النقدية لأهم كتاباته، فضلا عن التحذير منها من بعض العاملين في حقل الدعوة والفكر الاسلامي.

ج محاور كتاب: دراسات محمدية

درس نشأة وتطور الحديث النبوي، مخصّصا فصلا لعلاقة الحديث النبوي بالصراعات بين الفرق الإسلامية، دارسا أيضا ظاهرة الوضع في الحديث. كما خصّص فصلا لتبيان أهمية السنة بعد الحديث لتربية الأنفس، ليظهر تناقضا في عمل العلماء في موضوع الأخذ بالحديث الحاث على الفضائل حتى مع سند الرواة مبرّزين ذلك بالمقصد التربوي من هذا الموقف، وخصّص فصلا آخر لطرق جمع الحديث وطلبه، وفصلا آخر لطرق تدوينه.

الفصل الأول عن تطور الحديث.

الفصل الثاني عن الحديث النبوي وصلته بنزاع الفرق في الاسلام.

الفصل الثالث عن لرد الفعل ضد الوضع في الحديث.

الفصل الرابع عن الحديث وسيلة لتهديب النفوس والترويح على القلوب.

الفصل الخامس عن طلب الحديث.

الفصل السادس عن تدوين الحديث .

الفصل السابع عن مصنفات الحديث .

نشرت ترجمة أولى لبعض محتويات كتابه دراسات محمدية في مجلة الدعوة الإسلامية.⁽²²⁾

جمعت الترجمة بين العرض وبعض النقد الأولي وهي: بداية حصر قول جولديسهر حول الحديث النبوي وصلته بنزاع الفرق الإسلامية: يقول جولديسهر:

1- أن مجموعة الأحاديث التي يصور فيها الأتقياء ظروف الدولة - إن جاز التعبير - لصيقة جدا بظروف الزمن السياسية والاجتماعية، وناجئة عنها، حيث يبتون على لسان النبي آراءهم فيما ينكرونه من أعمال، ليستثمروا تلك الظروف بظهور أحداث قدر الله لها أن تقع.

2- يحتوي قسم خاص من الأحاديث النبوية على عدد كبير من الأحاديث التي ازدهرت بحرية وعفوية بسبب تعصب السكان للمناطق والبلدان والمدن المختلفة، وهي تعبير عن تعصب الدوائر الخاصة لبلداتها في إسلام انتشر عبر قارتين.

3- الحديث لفظة تعني الحكاية أو الخبر وليس هو الخبر الذي بين معتنقي العقيدة الواحدة فحسب، بل يراد به كذلك المعلومات أو المعارف التاريخية سواء أكانت دينية أم دنيوية، وسواء أكانت من الماضي البعيد أو من الوقائع أو الأحداث المتأخرة... ردّ الصحابة الأتقياء أقوال النبي الغامضة في وقار واحترام، وحاولوا حفظ كل شيء قاله النبي لأجل تهديب الجماعة وإرشادها... عندما قادهم الفتوحات السريعة المتتالية إلى بلدان بعيدة، نقلوا تلك الأحاديث النبوية إلى أولئك الذين لم يسمعوها بأذانهم، وبعد موت النبي أضافوا كثيرا من الأقوال النافعة التي ظنوا أنّها مع رأيه وأنها ستنسب له شرعا.⁽²³⁾

4- الجزء الأكبر من الأحاديث هو نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين.

5- الحديث لا ينفع وثيقة لتاريخ الإسلام في مراحل نشأته الأولى، ولكنه يمكن أن يعد إلى حد ما انعكاسا للنزعات التي ظهرت في الجماعة أثناء المراحل الناضجة من تطوره.

6- يتكون كل حديث من جزئين: الجزء الأول سلسلة الرواة الذين يتناقلونه عن بعضهم من مصدره إلى آخر راو فيهم على أساس عدالة كل واحد منهم، وتعرف هذه السلسلة بسند الحديث أو اسناده والجزء الثاني هو متن الحديث وهو نص الكلام المنقول.

7- كلمة متن لفظة جاهلية كانت تستعمل قبل الإسلام للدلالة على النص المكتوب.

8- التمييز بين مصطلح الحديث ومصطلح السنة مسألة واجبة. هنالك محاولات عديدة سعت للتعرف على الفرق بين المصطلحين وهناك من ناحية أخرى إصرار على أن الكلمتين متماثلتان ومترادفتان نسبياً، والفكرة الأخيرة لها ما يبررها من وجهة تطور علم المصطلح الإسلامي، أما باعتبار المعاني الأصلية للكلمتين فإنهما قطعاً غير متماثلتين، فالفرق هو أن الحديث هو الخبر الشفهي المروي عن النبي والسنة في الاستعمال الشائع عند جمهور المسلمين الأوائل ترتبط لغرض ديني أو شرعي بصرف النظر عن وجود روايات شفهيّة لها من عدمه.

9- أي قاعدة حكم شرعي توجد في حديث ما تعد من الطبيعي سنة ولكنه ليس من الضروري أن يكون للسنة حديث مماثل بمنحها التصديق، ومن الممكن جداً أن يتعارض حديث ما مع السنة.

10- من واجب الفقهاء الحاذقين ومن كان شأنهم التوفيق أن يجدوا حلاً للخروج من هذا الخلاف.

11- التباين بين الحديث والسنة محفوظ في كتب الحديث، فالأول أي الحديث ضبط نظري، والثاني أي السنة خلاصة لقواعد عملية، والميزة الوحيدة المشتركة بينهما هي أن كليهما موجود في الحديث.

12- السنة في الجاهلية هي كل ما يتفق مع تراث العرب وأعرافهم وعاداتهم، وبهذا ظلت الكلمة أي السنة مستعملة في العهود الإسلامي من قبل الجماعات العربية التي لم تتأثر بالدين الإسلامي إلا قليلاً، ثم تعرض المفهوم القديم لكلمة السنة للتغيير تحت تأثير الإسلام، وكان المقصود بالسنة عند اتباع محمد والجيل الأول من المؤمنين، هي أعمال النبي وأعمال الصحابة الأوائل، وكان على الجماعة الإسلامية طاعة السنة الجديدة وتوقيعها كما كان يفعل العرب الوثنيون سنن أسلافهم.

13- المفهوم الإسلامي للسنة عبارة معدلة من الآراء العربية القديمة، لذلك يقول النبي: "لَتَسْبِغَنَّ سُنَنُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضُبٍّ تَبَعْتُمُوهُمْ" (23).

يلاحظ مما تم عرضه كما جاءوا على لسان جولدسيهر تعمده سوء الفهم والتناقض في الاستنتاجات، لكن جولدسيهر يتابع البحث عن شرايين السنّة في علوم المسلمين ليقرأها بنفس المشرط الخادم لمقصده العام من أبطال حجّة السنة وهدم أهميّتها، ليكتمل مشروعه في ترسيم الإسلام ديناً ملقّحاً كاذباً كان مجرد أداة سياسيّة لأشخاص طموحين وصوليين، ومما نسجه شبكة لإثبات منطقية تهافته قوله:

" استعمل علماء الكلام المعاصرون وقتئذ للاستخفاف برواة الحديث ولم يكن يصعب عليهم البرهنة على مقدار تناقض المسائل الشرعية والعقدية ". (24)

ومن خيوط شبكته لدعم فكرته هذه:

1- وكان على أهل الحديث أن يقوموا بدورهم باعتبارهم سنداً يعتمد عليه، وذلك بجعل الأحاديث تصوّر الآراء المرفوضة من قبل المفهوم الديني الأكثر صحة.

2- تلك الآراء أصبح لها نوع من الشيوع حتى في الإسلام، ومن هذا القبيل تحسيم الصفات الإلهية.

3- وقد روي الحديث بأسلوب أخذ للحكايات الغريبة التي اقتبسها من أساطير الإنجيل فضلاً عن البدايات الأولى للإيمان بالآخرة، كما وردت في القرآن. وللاستخفاف بالحديث استغلت تلك النصوص التي رويت فيها الخرافات والأساطير الشعبيّة وأدجت في العقيدة الدينيّة باعتبارها من أقوال النبي.

4- حاول ابن قتيبة أن يفند في كتابه مختلف الحديث كل هذه الاعتراضات من وجهة نظر أهل السنة، إلّا أنّه وجد نفسه مكراً على استعمال كل أساليب التأويل لكي يجد بعض المعنى للأحاديث السخيفة التي لا يقبلها عقل، ولجأ إلى نظائرها في الكتاب المقدس بعهديه، وجعل شرائط لمعرفة صحة الأحاديث وتوثيقها، كما اعترف في كتابه بأن الأحاديث السخيفة ليست صحيحة ويعزو الخرافات السخيفة إلى القصص وإلى مصادر يهودية معيّنة عن أسفه لتهافت المسلمين على هؤلاء... الانتماء الحزبي لرواة الحديث هو الذي يقرّر ما إذا كانت جماعات من الناس متأثرة بحزب أو بآخر. (25)

يستطيع الباحث في مقارنة الأديان ملاحظة أن أدوات منهج جولديسهر عبر هذه الأفكار المستنسخة في غالبيتها مما طبق على نقد الكتاب المقدس كما فعل بعض العلماء الألمان، وهو نقد لا يستقيم مع خصائص القرآن الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام لاختلاف التلقي المصدري البيّن لكل باحث موضوعي.

ربما شعر جولديسهر ومن والاه في منهجه أن مسالك الإسناد في الإسلام تختلف عما هو موجود في التراث اليهودي والمسيحي، وبالتالي لن تصمد نظريّاته أمام النقد العلمي والموضوعي، فألّفت إلى المتن لينسج حوله شبكة افتراضاته التي يريد بها يقينا علميا فجاء أهمها:

1- لم يلق متن الحديث اهتماماً كبيراً بقدر ما لقي الإسناد نفسه من اهتمام، والإيمان بصحة حديث ما أو بطلانه يتوقّف على عدالة رواته.

2- استطاع منهج نقد الحديث عند المسلمين أن يخلص الأحاديث النبوية من بعض الأحاديث المخترعة التي تظهر عليها علامات الوضع بوضوح ليس غير.

3- اهتم المنهج النقدي الإسلامي في المقام الأول بالمظاهر الشكلية للنقد، وهذه الأمور الشكلية هي القول الفصل في توثيق الحديث وإثبات صحته.

4- ليس بمقدور أحد أن يقول أيّ أشكّ في إسناد الحديث لأنّ في منته سخافات تاريخية لا يقبلها منطق.

5- وإذا رويت أحاديث متناقضة بأسانيد صحيحة، ولم يقدم أحد الإسنادين على الآخر يأتي دور براعة التوفيق بينها وهذا يتطرق غالبا لتوافقه الأمور وصغائرها وإذا لم يتمكّن التوفيق بين المتن مطلقا يلجأ إلى نظرية الناسخ والمنسوخ ولاسيما في أحاديث الأحكام أو إلى صياغة أصول شكلية محضة لمعالجة علل الحديث.

6- ونجد من بين العديد من الأحاديث المتحيزة طائفة جديرة بالنظر وهي التي يستحسن أن تعرف بأحاديث المدارس الفقهية، أي الأحاديث التي اخترعت في مدرسة فقهية خاصة لغرض إثبات تفوقها على منافساتها من المدارس الأخرى وحتى تعطي وزنا وقيمة لمذهبها. ولم تختزع الأحاديث المتحيزة لمواجهة المبتدعة في العقيدة فقط، ولكن جعلت أيضا حكما أعلى في الاختلافات بين فقهاء العراق وفقهاء الحجاز. ولإثبات أن أبا حنيفة أعظم أئمة الفقه اخترع اتباعه حديث أن في أمّي رجلا يقال له أبو حنيفة هو سراج الأمة، وقد زعموا أن أبا هريرة سمع ذلك من النبي مباشرة.⁽²⁶⁾

تحرك أقلام المستشرقين أفكار مركزية أهمها:

1- نفي الأصل الإلهي للإسلام.

2- إرجاع كل عناصر الإسلام إلى معتقدات وثقافات سابقة.

3- البحث في التراث الإسلامي عن المناطق الجدلية أو المركبة التي لا يفقه تشخيصها وتحليلها من يفتقد إلى الروح المتوشحة مع الدين روحاً وعقلاً، ويسارع المستشرق إلى استنتاجات حولها سطحية ومتمسرة ومتعالة قد تبهر كسالى العقول من المتعلمين والعوام، ويتعمد تجاهل حلول المسلمين لتلك الاشكاليات الطبيعية في تاريخ علوم مرتبطة بدين مختلف: جمع الحديث وتصنيفه وحجّيته وغيرها من المحاور الدقيقة، لكن المستشرق يلجأ إلى التوصيفات التحقيرية ليثبت لقارئه أن السنة تفتقد للشرعية التاريخية والعلمية، وبالتالي لا يمكن اعتمادها كمصدر تشريعي للمسلمين إذا أرادوا ذلك وإذا سقطت السنة سيبدو سقوط المصدر الأول منطقيا إذ طعون ونقد قنوات وصول واستقبال السنة، يمكن تطبيقها على القرآن الكريم فلا عصمة ولا نبوة مثبتان للنبي، وقد فعل جولديسهر ذلك وغيره من المستشرقين من اتهم بالجنون والصرع وجنون العظمة، وغيرها مما سبق للقرآن تبرئته من الكثير منها قبل ظهور الاستشراق بقرون بعيدة.

الكل حسب جولديسهر شارك في صناعة هذا الدين بالكذب والتزوير والاختلاق والتدليس والكذب يعني عبر شبكة من الجرائم الدينية والأخلاقية والعلمية والمنهجية، فالسنة هي ثمرة خبيثة بمنطق جولديسهر صنعها مجموعة من اللصوص.

يضيف جولديسهر للسابقين ممن ساهم في اللصوصية المدعاة: القصاص والمعمرين موضحاً:

1- الرجال الذين كانوا يحدثون العامة على قارعة الطريق أو في المساجد لتسليةهم أو لعظمتهم برواية أحاديث تتفق مع هذا الغرض، دون الإشارة بشكل رسمي إلى هذا بقصد فقد عرفوا باسم القصاص والفقهاء المحترفون ناصبهم العدا، حيث اندفع الناس بكثرة نحو القصاص، وحلقات وعظ القصاص تعج بالناس أكثر من حلقات الفقهاء.

2- المعمرون يزعمون أنهم من صحابة النبي، وبذلك لم يكونوا في حاجة إلى اختراع أسانيد تربطهم به، وبهذا نجوا من النقد حيث كانوا محظوظين لكسبهم ثقة الناس في ادعائهم الصّحبة، ونجحوا في إيجاد جمهور مغفل يسمع أكاذيبهم.

يتناول جولديسهر بالتوصيفات التحقيقية على فرع مهم في عمارة جمع الحديث وتصنيفه وتفعيله من خلال توسيع دائرة الإتهام بنفس الوثوقية: " كان القصد من وراء تلك الأحاديث التي نشأت في الأمصار تأييد بعض المذاهب التي ظهرت في دوائرها الخاصة، والنقاد المسلمون أنفسهم نبّهوا إلى السمة المحلية أو الإقليمية لأحاديث كثيرة.⁽²⁷⁾

ويضيف بنفس الحقد عن الرحلات العلمية طلباً للحديث: " بحثا عن الغرائب انقلبت في فترة وجيزة إلى لهُو محض والغاية الوحيدة من تلك الرحلات الطّوال الحصول على أحاديث دون فهم لمحتواها، ولكي يتاح للرحالة أن يفتخر بأحاديثه، ولكي يبدو ذا أهمية في أسانيد العبارات المعروفة ".⁽²⁸⁾

ولكي يغلف جولديسهر أفكاره حول انتفاء الشرعية التاريخية والعلمية عن حجّة السنة يوحى بأن أدلّته صلبة وهي نتيجة الدراسة الحيادية. فأبسط قواعد الحياد هي اختيار التوصيفات الحيادية وهو ما أصرّ جولديسهر على فعل عكسه.

يضيف جولديسهر: " التأليف في مجال الفقه وهو ما يمثل نتاج التفكير الشمولي يتقدّم من حيث التسلسل التاريخي على التصنيف في الحديث: آثار أبي حنيفة وتلميذه أبي يوسف والشيباني وآثار الشافعي، وكثير من الأجزاء المفردة المصنّفة في الفقه جميعها وغيرها تتقدّم في الزّمان على كتب الحديث مؤلّفو تلك التصنيفات لم ينجذبوا بعد نحو المادة الحديثية المجمعة التي كانت في متناول اليد... فعل ذلك

طلاب الفقه في القرنين الثالث والرابع مع إصرارهم على الأحاديث المفردة المتلقاة في كل حالة على حده، إما من مصادر شفهيّة أو من الصّحف الموجودة.⁽²⁹⁾

معرفة طبيعة المجتمعات ضرورة لفهم خصائصها الفكرية، والعرب معروفون بالحفظ والمذاكرة لتجديده؛ والتدوين لم يكن منعماً عند الخواص. قبل تدوين القرآن وجد التدوين، وقبل التدوين الرسمي للحديث وجدت صحف له لدى الخواص، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ليست حروفاً تكتب بل حياة القدوة التي يقتفي أثارها من ينشد الحياة الكريمة في الدنيا والآخرة، وملاحظات جولدسيهر تكاد تنطبق على تدوين التلمود أكثر من رحلة الحديث إلى المدونات الكبرى، وجولدسيهر يهودي يدرك أزمة دينه عندما حجت التوراة عن الناس بتضخيم التلمود وجعل الأولوية العقديّة له.⁽³⁰⁾

ثامنا: عينة المسيحي الألماني جوزيف شاخت:

أ. تعريف مقتضب بالمستشرق الألماني (الذي درس عند اليهود وعارض النازية) جوزيف شاخت هو مستشرق (1902 . 1969م)

تحولت بعض كتابات جوزيف شاخت حول السيرة والأحاديث المرتبطة بالأحكام مصدراً لأغلبية من يكتب عن محاور من المحورين في العالم الغربي بمختلف اللغات، ونادراً ما يتمّ الانتباه للنقد الذي لحق كتابات شاخت من بعض المستشرقين، والنقد الأكثر قرباً من العلميّة والموضوعيّة، وهو نقد علماء المسلمين، لكن يجب التذكير هنا أيضاً أن المستشرقين يكتبون لدائرهم ولا يهتمّ رجوع الصّدق لما يقدّمون من اجتهادات وفرضيات، معتبرين التراث الإسلامي تراثاً إنسانياً عاماً يحقّ لأيّ باحث أن يدرسه بالمنهج الذي يرضيه. لكن الغريب أن أفكاره تجدها حياة في كتابات بعض المنتسبين للإسلام سواء بالإشارة إلى اسمه وبعرض أفكاره باعتبارها إبداع الكاتب المنتسب للإسلام، فتكون الخيانة خيانتين.

ولد المستشرق الألماني جوزيف شاخت 1902م في ألمانيا، ودرس هناك علوم اللاهوت والفيلولوجيا الكلاسيكية، واللغات الشرقيّة، درس في جامعة ألمانية، ثم مدرّساً في الجامعة المصرية لمواد: فقه اللغة العربيّة واللغة السريانية من 1934 إلى 1939 وقد أقام فترة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية سافر إلى لندن وعمل في إذاعتها الشهيرة، وكان معارضا للحكم النازي.

وبعد انتهاء الحرب عيّن أستاذاً في جامعة لايدن الهولندية، حيث استفاد من مخطوطات مكتبته، كما أشرف على طبعة ثانية لدائرة المعارف الإسلامية، وفي 1959 عيّن أستاذاً في جامعة كولمبيا بالولايات المتحدة.

مجالات نشاطات شاخت: تحقيق ودراسة مخطوطات عربيّة، استفاد لتحقيق ذلك من أسفاره وإقاماته في مدن إسلامية تاريخيّة: مثل القاهرة والجزائر وفاس وإسطنبول وتونس.

وحقّق شاخت مخطوطات لها علاقة بالفقه الموضوع الأثير عنده وألف كتابين: بداية الفقه الإسلامي وأصول الفقه المحمّدي. ووسّع اهتمامه أيضا إلى واقع الفقه والقانون في بعض الدول الإسلامية كالجزائر ومصر.

اعتمد على مخطوطات ودراسات جديدة لإصدار كتاب: مصادر جديدة لها علاقة بتاريخ علم الكلام الإسلامي، واهتم أيضا بتاريخ العلوم في الإسلام خاصّة الفلسفة والطب.

صنّف عبد الرحمان بدوي تراث جوزيف شاخت والذي كان بأكثر من لغة في:

1-دراسة مخطوطات عربية: تحقيق نصوص مخطوطة في الفقه الإسلامي:

مخطوط كتاب اختلاف الفقهاء للطبري، مخطوط كتاب الحيل والمخارج للخصاف، مخطوط كتاب الحيل لأبي حاتم القزويني، مخطوط كتاب الشفاعة للطحاوي، مخطوط كتاب أذكار الحقوق والرهون، الطحاوي كتاب الشفاعة، الشيباني: كتاب المخارج في الحيل، الطبري: اختلاف الفقهاء.

2-دراسات في علم الكلام. كتاب بعنوان الإسلام وهو مختصر في العقائد الإسلامية/ مقال مصادر جديدة تتعلّق بتاريخ علم الكلام الإسلامي.

3- مؤلفات ودراسات في الفقه الاسلامي: بداية الفقه الاسلامي مركزا فيه على المذهب الشافعي، مخطط تاريخ الفقه الاسلامي، موجز في الفقه الاسلامي تنقيحا لمخطوط لعالم الماني برجشترسر، مدخل إلى الفقه الإسلامي، الشريعة والقانون في مصر الحديثة إسهام في مسألة التجديد الإسلامي، التطور الحديث للشريعة الإسلامية في مصر.

4-دراسات ونشرات في تاريخ العلوم والفلسفة في الإسلام. تعاون في مؤلّفات حول تاريخ الطب وإسهامات علماء مثل ابن بطلان البغدادى وابن رضوان المصري وابن النفيس.

5- متفرقات⁽³¹⁾

ب-شبهات شاخت حول السنة

اهتم المستشرق الألماني البريطاني جوزيف شاخت بالفقه الإسلامي، ولم يكن ليتجاهل مركزيّة السنة في البناء الفقهي الإسلامي: أصولاً وفروعاً، فاجتهد في خطّ طريق خاصّ له في دراسة السنة الشريفة، مع استثمار ما وصله من نتائج وفرضيات تقدّم كحقائق علميّة ممّن سبقه من المستشرقين، خصوصا جولديسر وكتابه دراسات محمّديّة.

وأصبحت كتابات جوزيف شاخت مرجعاً لمن لحقه من المستشرقين وتبنى بعضهم آراء شاخت كمسلّمات علميّة غير قابلة للدّحض، بينما انتقد البعض الآخر بعض تلك الآراء. لم ينشر شاخت أفكاره فقط عبر الكتب والمحاضرات، بل نشرها أيضاً في مجلّات خصوصاً المجلّة التي اشترك في تأسيسها مع مستشرق فرنسي وكان عنوانها ستوديا إسلاميكا كما عبرت أفكار شاخت إلى الناس عبر المواد التي حرّرها في دائرة المعارف الإسلامية. كتابا شاخت أصول الفقه المحمّدي ومدخل للشرعية الإسلامية، مازالا يحقّقان أرقاماً هامة في المبيعات وعنوانهما يتصدّران قائمة مصادر ومراجع الأطاريح والدّراسات الأكاديميّة حول موضوعيّ الفقه الإسلامي وحجّيّة السنة وأحاديث الأحكام وما يحيط بهذه المحاور.

ولابد من ملاحظة منهجيّة مهمة وهي أمانة اختيار المصطلحات في ترجمات كتابي شاخت واستخدام مصطلحات إسلامية لم يطوعها هو أصلاً للغة، فالشرعية عنده هي القانون والتشريع بمفهومه البشري، حتى أنّه ينسب الدين للنبي محمد إمعاناً في تأكيد بشريّة الإسلام.

ويطعن شاخت أيضاً في البناء الأدبي واللّغوي للأحاديث بزعمه تعمد علماء المسلمين الذين اختلقوا الأحاديث الإطالة في التّصوُّص بإضافة صيغ السّند والإحالة حتى يكون ما فعلوه موحى بالحرص على الأمانة والدّقة.

ج- أهم شبهات شاخت حول السنة الشريفة وحجّيّتها والموزّعة على الكتابين، وعلى بعض مقالاته المواد التي حرّرها في دائرة المعارف:

1. حول صحة نسبة الأحاديث للرسول.
2. حول اعتبار مصطلح السنة لاحق على القرنين الأوّل والثّاني من ظهور الإسلام.
3. حول مصطلح السنة كمسمى في فضاء التداول بين العرب، كان سابقاً للإسلام.
4. حول دور السياسة الأساسي في صناعة مدوّنات السّيرة والأحاديث.

طبيعة أفكار شاخت تجعل من المنطقي تصنيفه ضمن قائمة المستشرقين الجذريين كباتريشيا كرونه، لأنّه يحاول تجريد الفقه الإسلامي والإسلام عموماً من أصلته بعد مصدره الإلهي، لبحث عن جذور له في الأديان والمعتقدات السابقة للإسلام، السّماوية والثّنيّة، وهذا سبقه إليه مستشرقون آخرون كنولدكه و جولديسيهر وغيرهما، وهذا ليس بغريب مادام كل المستشرقين كما سبق التأكيد ينفون المصدر الإلهي لرسالة النبي محمد ﷺ مما يحثّهم على البحث عن مصادر أخرى في المعتقدات والثّقافات السابقة على الإسلام.

يستند شاخت في دعم أفكاره إلى شواهد من مصادر إسلامية، يتعمّد انتقاء ما يُوافق مقاصده وإن كان الشاهد هشاً، ثم هو يؤوّل ويؤجّه الشاهد إلى ما يريد، متجاوزاً في أحيان كثيرة القواعد المنهجية والعلمية، فضلاً عن الأمانة العلمية في الانتقاء والنقل والفهم في نقده آراء جوزيف شاخت. وهو ما بينه مصطفى الأعظمي وشوقي أبو خليل ومحمد أبو شهبة وغيرهم. سعى شاخت أيضاً إلى مدّ أفكاره إلى الأزمنة المعاصرة بنفس الخلفية والأهداف عندما استغلّ عمله في التدريس الجامعي في مصر والجزائر للكتابة حول التشريعات المصرية المعاصرة، أو تلك التي حاول الاستعمار الفرنسي فرضها على الجزائريين، واعتبرها شاهد على عجز التشريع الإسلامي على مواكبة حاجة المجتمعات الإسلامية للتقنين.

هـ- شواهد من بناء جوزيف شاخت لنظرياته حول حجية السنة من خلال كتابه: أصول الفقه المحمدي:

أهمية هذه الشواهد تكمن في تبيان حرص المستشرقين على الرجوع إلى المصادر الإسلامية الأساسية كما يعتقدون، وأعمال ما يعتبرونه مشارط الموضوعية في التحليل والاستنتاج مع لغة تبدو علمية حريصة على الحقيقة وحدها، وغياب المتخصصين المسلمين في مجال حروب اليقين هذه جعل تلك الشبهات تستشري كحقائق لا يشوبها عوار وإن وُجدت الردود، فهي لا تحين ولا تنشر في كل ساحات معارك اليقين ليس فقط كردود دفاعية، ولكن كخطوات استباقية.

يقول شاخت:

1- يذهب أصول الفقه المحمدي التقليدي كما طوّره فقهاء الشريعة إلى أن مجمل النظام الفقهي يقوم على أربعة أصول أو مصادر هي القرآن والسنة النبوية أي سلوك الرسول النموذجي وإجماع الأمة ومنهج القياس، وقد ابتكر الشافعي أسس هذه النظرية.⁽³²⁾

هنا يبيّن أهمية الفقه في باقة العلوم الإسلامية ويضع الشافعي على رأس طريق منهجيته والشافعي سيكون محلّ دراسة ونقد لدى كل المستشرقين والحدّاثيين من أتباعهم.

2- وكثيراً ما تعتمد آثار الصحابة بدلاً من الأحاديث النبوية، بل همشت في أحيان كثيرة أحاديث النبي دون سبب واضح إذ تؤوّل بانتظام في ضوء ما يرد في آثار الصحابة على افتراض أن الصحابة أفضل من يعرف النبي.⁽³³⁾

هذا استنتاج متهاافت يضعه شاخت لغما يقع ضحيته غير النبيه.

3- سنة العمل والسنة الحية: تُعرّف النظرية التقليدية للفقه المحمدي السنة بأفعال السلوك النموذجي للنبي، وهذا هو المعنى الذي يعتمده الشافعي، فالسنة والسنة النبوية لهما المعنى نفسه عنده، إلا أن السنة لا تعني

في المعنى الدقيق للمصطلح أكثر من أمر سابق طريقة حياة. وقد بيّن غولديسهر أن الإسلام قد أخذ هذا المصطلح المحجن في الأساس، وقام بتطويعه، أما مرغليوت فقد توصل إلى أن السنة بوصفها أصلاً من أصول الفقه كانت تعني في الأصل.⁽³⁴⁾

ظاهر أن شاخت يتبنى أفكار من سبقوه في وضع السنة ضمن سياق خارج القداسة والمصدرية، وسيفصل مصطفى الأعظمي في مرتكزات هذا الخطأ المنهجي المقدم كمصادرة لكل مراتب.

4- لممارسة المثالية أو المعيارية للأمة ولم تكتسب المفهوم الدقيق لعمل السلف الذي وضع النبي أسسه إلا لاحقاً تأكيد ما توصل إليه مارغليوت. ويعدّ العمل والأمر المجمع عليه أهم المفاهيم التي ترتبط بالمعنى القديم للسنة ارتباطاً وثيقاً من ناحية، وتندرج ضمن الإجماع من ناحية أخرى. ونظراً لافتقارنا إلى تسمية أصلية دقيقة لجملة هذه المفاهيم، فإننا سنسمّيها السنة الحية للمذاهب القديمة.⁽³⁵⁾

كلام شاخت يصوّر المشهد كأن الأمة الإسلامية استفاقت على فراغ مهول، سارعت إلى ملأه فوقت في الأخطاء، وهذا تصوير لا تاريخي للحياة الدينية للمسلمين، سينبّه مصطفى الأعظمي ومصطفى السباعي وشوقي أبو خليل وغيرهم إلى تعمّد المستشرقين توجيه الأفكار إلى ما يخدم رغبتهم في هدم صرح السنة وبالتالي الدين كلّ، بداية بتشويه صورة النبي عبر كتابات تندعّب التأريخ إلى حياته إلى سنته وأحاديثه، لتبيان أنّها لم تغد الأمة، إذ لا وجود لها من منظور شاخت بنفيه الصّحة على السند بنظريته القذف الأعلى Projecting Back.

5- كانت المذاهب الفقهية القديمة تتفق في تحديد المفهوم القديم للسنة أو السنة الحية بوصفها تمثل ما جرى عليه الناس من عمل مثالي، عبّرت عنه آراء المذهب المتفق حولها؛ غير أن مفهوم السنة لم يقتصر حينئذ على أحاديث النبي على الرغم من أن أهل العراق كانوا من طالب بربط السنة بالنبي، فأطلقوا عليها اسم سنة النبي، وقد فاقت سرعة تطور الأحاديث، ولاسيما النبوية منها، التطور المتواصل للفقه في المذاهب القديمة، وذلك في زمن ما قبل الشافعي. وقد كانت هذه المذاهب القديمة بصدد التصدي للتيار المتنامي للحديث عند ظهور الشافعي، وقد أتاح هذا التعارض بين الفقه والأحاديث للشافعي، فصفة التبريز إذ أصبحت سنة محمد لديه تساوي ما تتضمنه الأحاديث النبوية التي منحها حجّة مرموقة.⁽³⁶⁾

يؤسس شاخت والمستشرقون تضاريس للفقه الإسلامي وأصوله منذ نشأته بما يخدم مقاصدهم: هدم الأسس الدينية المصدرية للإسلام، وجعله مجرد اجتهادات، وأحياناً تحبّطات حاطب ليل، فالمستشرقون لا يعترفون بوجود عقل مسلم وعقل عربي قادرين على البناء الفكري السليم، سيؤسس هو وجولديسهر لقاعدة في الهدم من خلال تلاعب واضح في تقييم مشروع الشافعي، تتغيّر قواعده وفق ظروف الكتابة، فتتغيّر جرعات السّم وطريقة وضعه في تفاصيل الكتابة. يقول شاخت:

6- الشافعي يقدّم نظرة جديدة ومستقلّة للأحاديث النبويّة على خلاف ما كانت المذاهب القديمة تذهب إليه من مواقف. (37)

تنبؤاً السنة النبوية عند الشافعي مرتبة أدنى من مرتبة القرآن، فما لم يذكر في القرآن يؤخذ من السنة والإجماع، وقد زعم الشافعي قبوله الحجّة المطلقة للقرآن، إلا أنّه لم يقرّ بذلك في المستوى العملي. (38)

في فكر شاخت يبدو الشافعي العالم المسلم ساعياً إلى ترتيب الوحي بما يخدم هواه، متجاوزاً كل آيات القرآن الكريم المرسّخة لمقام النبي عليه الصلاة والسلام، فالمستشرق يوحى بأن غرض الشافعي كان تنزيه القرآن والإعلاء من شأنه، وهو في الحقيقة يبطن اتهاماً للشافعي بتهميش حجّة السنة في بناء صرح أصول الفقه.

7- معالم نظرية القذف الأعلى لجوزيف شاخت، يقول شاخت:

1.7 يذهب الرأي السائد من ظهور الأحاديث إلى القول بوجود أقوال جوهرية صحيحة، تعود في الأصل إلى زمن النبي وإلى هذه الأقوال، عرفت تحريفاً في القرون المتعاقبة، وذلك من خلال ما أضيف إليها من معلومات زائفة مثيرة للجدل.

2. ويذكر الرأي كذلك أنه تمّ التخلي عن الكثير من هذه الإضافات، من خلال ما قام به علماء الفقه المحمدي من نقد للأسانيد.

3.7 كما يذكر الرأي نفسه أن الزيادات التي ظهرت لاحقاً لم تغمر الأقوال الجوهرية الصحيحة بصفة كليّة.

4.7 ولا يوجد تسويغ لأغلب ما يذهب إليه الرأي من هذه الأقوال وما شابها، تلك الأقوال التي لم تنطبق بكل تأكيد على أحاديث الأحكام.

5.7 وقد حاول بعض الكتاب الذين ظهوروا لاحقاً، الاعتماد على هذه الأقوال للتقليل من شأن الاكتشاف الجوهرية الذي توصّل إليه جولديسهر فيما يتعلّق بطبيعة الأحاديث النبوية، وتتمثّل إحدى أهمّ النتائج التي يمكن استخلاصها... السنة الحية للمذاهب الفقهية القديمة القائمة على أعمال العقل الفردي مثلت منطلقاً للتفكير الفقهي، وقد ساندت هذه السنة دعم الصحابة ومباركتهم لها.

6.7 وتتمثل النتيجة النهائية كذلك في أن الأحاديث التي رويت عن النبي نفسه والتي انتشرت على أيدي أهل الحديث نحو منتصف القرن الثاني بعد الهجرة، قد تقاطعت مع السنة الحية وأثّرت فيها، وأن الشافعي هو من يؤّ دون سواه الأحاديث النبوية المكانة العليا...

7.7 عدد كبير من أحاديث الأحكام التي ترد في الجامع الحديثي، تعود في الأصل إلى ما بعد زمن مالك والشافعين وفي أن تنقصى بروز أحاديث الأحكام. ..

8.7. تفتقر الأحاديث المتعلقة بالمغازي أو السيرة النبوية إلى الأسانيد الصحيحة عموماً، ويفرق الشافعي في هذا المجال بين هذه الأحاديث من ناحية، وأحاديث الأحكام من ناحية أخرى⁽³⁹⁾.

يعتمد جوزيف شاخ على استنتاجات جولديسهر ومارجليوت في حجّة السنة وقيمة الأحاديث ومكانة وعصمة النبي عليه الصلاة والسلام، لبني لقارثيه ديناً إسلامياً بعيداً عن حقيقته وتاريخه، يعني أنه يهدم ما هو معلوم من الدين بالضرورة في البناء الإسلامي، ويؤسس هيكلاً هجيناً غريباً، بل وكاريكاتورياً أحياناً، ولأنّه يدرك أنّ ما يقوله يفتقد للحدّ الأدنى من الأمانة والمنطق، يغرق شاخ قارئه بتحليلات تبدو مكررة لمن ينتبه إلى خلفياتها ومقاصدها، وتبدو لمن سلّم عقله للاستشراق كما لو أنه يؤكّد ويثبت رأيه واستنتاجه حيث نجد مثلاً يواصل:

9.7 يجب وضع نقطة انطلاق واضحة المعالم للاستعمال المنهجي المنتظم للأحاديث، بوصفها أقوالاً تؤثّق تطوّر الموقف الفقهي، وذلك بالبحث والتحقيق في نشوء أحاديث الأحكام زمن التدوين الذي يمتد بين سنة 150 وسنة 250 بعد الهجرة على وجه التقريب.⁽⁴⁰⁾

يلحق شاخ فكرته في عالم الوهم ويريد ترسيخها في عالم الحقائق، مطمئناً أن المستشرقين حتى وإن لمسوا التدليس في الأفكار والانحراف في الاستنتاجات، لا تتجاوز ردودهم البرتوكول الداخلي في نقد أفتي لا يبحث عن الحقيقة العليا.

فقد انتقد ماكس برافمان، وهو زميل شاخ في جامعته، أفكار شاخ حول حجّة السنة من خلال كتابه: "الخلفيّة الروحية للإسلام المبكر"، مبيناً الفجوة المنهجية التي وقع فيها شاخ في نسبة عمل الرسول إلى عمل الخلفاء، مستنداً إلى أدلة من التراث الإسلامي تؤكّد ملاحظته، كما انتقد نويل كولسون وهو تلميذ شاخ، هذا الأخير عبر التنبيه إلى عدم منطقيّة نظرية تسلسل تكوّن الفقه الإسلامي عند شاخ من زاوية دور أحاديث الأحكام، فالأحكام الفقهيّة لم تكن لتقوم لو لم تصل الأحاديث. ويعطي أمثلة من التراث الإسلامي.

10.7 يشير شاخ إلى أهميّة تحديد المسافة بين زمن أبي حنيفة وزمن الجامع الحديثي، لأن زمن التدوين قد امتد بعض الشيء إلى حدود النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة، وأحاديث الأحكام المنقولة عن النبي قد نشأت على امتداد المدّة المذكورة كاملة، وإن عرفت تطوراً سريعاً طيلة السنوات الخمسين الفاصلة بين زمن الشافعي وزمن تدوين الجامع الحديثي، ويمكن إرجاع ذلك إلى التأثير المتبادل بين الشافعي وأهل الحديث، لذلك أفضل طريقة لإثبات عدم وجود حديث ما في حقبة معيّنة في البرهنة على تأكيد عدم

استعمال ذلك الحديث بوصفه حجة فقهية في جدل معين، تكون الإحالة فيه إلى ذلك الحديث أمراً أكيداً متى وجد بالفعل وأحاديث الأحكام كانت تستحضر بوصفها حججاً يقصد بها الدّفاع عن مواقف مستعملها لما أصبحت منتشرة.⁽⁴¹⁾

11.7 موقف شاخت من الأسانيد لا يختلف عما سبق من تعمد تجاهل عرض متركزات الرؤية الإسلامية، فبالنسبة له: الأسانيد تشكّل الجزء الأكثر اعتبارية في الأحاديث، فإن المقاصد التي تكمن وراء وضع هذه الأسانيد وتطورها تمكّنا إذاً - ما أقرّ بها - من الاعتماد على هذه الأسانيد لتحديد تواريخ ظهور الأحاديث في الكثير من الحالات، وكانت الأسانيد في بداياتها بسيطة إلا أنها أضحت على غاية من الدقة عندما دوّنت في كتب مجاميع الحديث في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة، ويستحيل أن نظمّن إلى ما يعده علماء الفقه الإسلامي أسانيد صحيحة من الصنف الرفيع، فنقدّم الشكلي للأحاديث الذي يقوم خصوصاً على نقد الأسانيد، إنّما هو برمته غير صالح للتحليل التاريخي، وبعض هذه الأسانيد التي تحظى بأعلى درجات الثقة والتقدير لدى علماء الفقه المحمّدي هي نتيجة لانتشار وضع الأحاديث في الجيل الذي سبق مالكا. وكثيراً ما جمعت الأسانيد بطريقة غلب عليها الكثير من الإهمال.⁽⁴²⁾

هناك مستشرقون اختصوا في دراسة أسانيد الحديث مع تسليمهم بأن المسلمين أهملوا دراسة متن الحديث، ولكنهم يدرسونها وفق منهجية بعيدة عما تواطؤ عليه علماء الحديث لأنهم يعتبرون أنفسهم غير ملزمين بذلك، فتوسّعوا في الطعن والاستخفاف بالأسانيد واضعين أيديهم على ما يعتبرونه ألغاماً تنسف الإنسان وتسقط حجّة السنة. يقول شاخت:

12.7 يتبيّن من خلال التطوّر المصطنع للأسانيد زيادة على التطوّر المادي للأحاديث في زمن التدوين وما قبله، أنّه من العبث أن نحاول إعادة بناء توجهات حكم أي صحابي معيّن وخصائصه من خلال الأحاديث التي يبدو فيها قول هذا الصحابي الحجة النهائية أو التي يكون هو أوّل من رواها، والآثار الفقهية المنقولة عن الصحابة تفتقر إلى الصّحة شأنها في ذلك شأن الأحاديث النبوية.⁽⁴³⁾

هذا هو الحكم الذي يرضي غرور المستشرق ويشعره بالانتصار في معركة إخراج السنة من التشريع، ويسهّل آلياً بعد هذا اعتبار القرآن الكريم أيضاً كتاب خال من المتانة والتنسيق وغير قادر على إعطاء المسلمين قواعد بناء المجتمع المسلم، فيحدث كما حدث من بعض زعماء الهند المسلمة اللّجوء إلى القوانين الوضعية في كل صغيرة وكبيرة (الانجليزية زمن الاحتلال)، بل هناك من اعتبر الصّلاة مجرد دعوة لتذكّر الله عزوجل. يضيف شاخت:

13.7 القواعد الفقهية في الأحاديث: كثيراً ما عرف الفقه المحمدي في مرحلة ما قبل التدوين بأنه صياغة قواعد فقهية في شكل شعارات، تحول أغلبها إلى أحاديث تروى عن النبي وعن غيره من الأئمة... يلاحظ تزايد الأحاديث الفقهية وتطور المواقف في مرحلة ما قبل التدوين.⁽⁴⁴⁾

يتحدث جوزيف شاخ عن الوضع ليس كمسألة تصدى لها العلماء، بل كواقع اضطر له المسلمون وقبلوه ليغطوا على الفراغ في الأساس التشريعي للسنة:

14.7 اكتسبت بعض القواعد المنزلة نفسها التي يحظى بها الحديث النبوي في وقت متأخر نسبياً، فالقاعدة القائمة على السجع وتقول: لا طلاق ولا عتق في إغلاق، لا ترد في شكل حديث نبوي، إلا في مسند أحمد ابن حنبل، وفي بعض كتب الحديث... القول أن المسلمين على شروطهم نُسب إلى القاسم بن محمد قبل ظهور مالك بجيلين، ثم نُسب إلى النبي في وقت لاحق. قول القاسم واضح كان يرمي إلى وضع قاعدة عامة.⁽⁴⁵⁾

لا يرى شاخ أن السنة النبوية طمأنت القلوب والعقول بما وفّره للمسلمين من قواعد صلبة لبناء مجتمع للدين والدنيا، وكانت السنة محفوظة من الله ثم المسلمين لأنها ركن أساسي في الدين، لكن المستشرقين منذ البداية ناصبوا السنة ونبيها وإلهه العدا، ثم بحثوا عما يروي عطشهم لهدم كل هذا:

15.7 أهم قاعدة إجرائية في الفقه المحمدي: "البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر" لم تتحول هذه القاعدة إلى حديث نبوي إلا في وقت متأخر نسبياً.⁽⁴⁶⁾

مثال حي للمصادر المنتشرة في كتابات المستشرقين.

16.7 أهم أطروحة يتبنّاها أهل الحديث على خلاف المذاهب الفقهية القديمة: في أن الأحاديث المشهورة التي تروى عن النبي تحل محل السنة الحية: أما أهم نشاط عُرفوا به، فتمثّل في وضع أحاديث نبوية ونشرها، غير أنهم بطبيعة الحال نادراً ما يصرحون بذلك مباشرة والحال أن نشاطهم ترك أثراً واضحاً للعيان، إذ تقرّ الأحاديث بذلك وتُنسب على سبيل المثال إلى النبي قوله: "أن الحديث سيفشو عني فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو عني، وما أتاكم عني يخالف القرآن فليس عني".⁽⁴⁷⁾

بكلام صريح يقول المستشرق أن حجّة السنة مبنية على مؤامرة كبرى على الحقيقة بموافقة المسلمين على اختلاق تراث نبوي يرجع إليه:

17.7 نلاحظ منذ زمن الشافعي نشوء احاديث يغلب عليها الجانب الخرافي بدعم من المحدثين (48). هذه الخلاصة من جوزيف شاخ يحاول التأسيس لها عبر التواءات منهجية تتبعها بعض علماء المسلمين لكن شاخ قبل وفاته لم يراجع آراءه بناء عليها بل كان أحد الحواجز الحديدية في الجامعات البريطانية أمام أية محاولة بحثية و أكاديمية تخرج كما وضعه من سياج يمنع الوصول الى الفهم الصحيح لتاريخ السنة و

تدوينها و حجيتها و حتى من تحرر بعيدا عن السياج منعت افكاره من التدوال وهذا شهد به مصطفى الاعظمي الذي ناقش اطروحة دكتوراه حول السنة في جامعة بريطانية و تحت اشراف استاذ بريطاني وضمن التسقيف الذي وضعته الجامعة .

و-في كتابه عن المدخل الى القانون الاسلامي أو الفقه الاسلامي

انطلق شاخت من مسلّمات سابقه جولدسيهر و ماجليوت في كون السنة مصطلحا ذي جذور وثنية، فمارجليوت القسّ البريطاني ذي الأصول اليهودية، يرى السنة مجرد توصيف لأعراف سائدة ومألوفة قبل الإسلام، وحملت في مضمونها آثار الثقافات السابقة من بابل وسبأ وروما، ولم يُضف المسلمون إلا ما يلائم خصائص البيئة التجارية في مكّة والزراعية في المدينة، وكأن الرسول جاء لإجراء تكييفات بسيطة على ما كان سائداً قبله، لذلك يسمي الإسلام المحمدينيسم ويكتب كتابا بعنوان محمد ونشأة الإسلام، وكتاب آخر عن العلاقات بين اليهود والعرب (يلاحظ عدم الأمانة في النقل إلى اللغة العربية، ربّما ذلك خشية الفرار من العنوان، أمّا المحتوى فهو طعن في كلّ مقدّسات الإسلام ومؤلفاته مصدرية في الغرب على علاقتها الظاهرة)، وتبنّى شاخت رأي جولدسيهر في كون العقيدة الإسلامية والمذاهب الإسلامية نشأت من رحم الصّراعات السياسية التي بدأت حتى في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتفق الثلاثة في كون الأطراف المتنازعة لجأت لصناعة تراث سيّ، يعتمدونه حجة للإعلاء من مواقفهم إزاء خصومهم، فحجّة السنة تتيح طريقا فتكاك الشرعية من القرآن أيضا.

يستند شاخت إلى فكرة أن نشأة المذاهب الفقهية كان سياسياً، ليبني الفكرة الفرعية، ولكن المركزية وهي أن المواقف السياسية المؤسسة للمذاهب، كانت بحاجة حيوية لغطاء ديني يفتح أمامها أبواب ادعاء الخلفيّة القرآنية، فكان وضع الأحاديث بل وإنشائها مخرجاً اضطرارياً. علماء القرن الثاني والقرن الثالث الهجريين هم من ألّف الأحاديث ونسبوها للنبي عليه الصلاة والسلام.

أراد شاخت أن يحلّل البناء الفقهي والأصولي في الإسلام بناء على نفس المصادر المطبقة في كل كتاباته عن الإسلام، ويُفهم من إصراره على نفس المنهج، أنه وصل إلى نتائج يقينية لا يرتق إليها الشك، ومن الأمثلة على ذلك الشواهد التالية من كتابه "مدخل الفقه الإسلامي" مع التّحقّق دائماً في أمانة النّقل من لغة الكتابة الأصلية، أو من لغة وسيطة بين الأصل والتّرجمة، وفي اختيار عناوين الكتب يسعى الناشرون إلى وضع الخدز لتحقيق الأرباح أولاً وتكييف العنوان مع مرجعية المتلقّين.

1- عما أسماه عدم التزام المسلمين بالحكم القرآني: معاقبة السارق بقطع يده مثلما ينصّ على ذلك القرآن (المائدة 38) ويثبته الفقه الإسلامي، والإكتفاء بجلده، وهو ما أقره القديس يوحنا الدمشقي ت. 750م عن الصّعوبة الكامنة في تنفيذ عقوبة لم تكن معروفة عند العرب القدامى... توجد حالات كثيرة خالف فيها المذهب المبكر للفقه الإسلامي المنطوق الواضح والصريح للقرآن.⁽⁴⁹⁾

2- محاولات شاخت وغيره من المستشرقين إيجاد جذور للتشريع الإسلامي خارج مصادر الإسلام إمعانا في إثبات سطوه على تراث آخرين: تسربت مفاهيم ومواعظ ترقى في الأصل إلى القانونين الروماني والبيزنطي وإلى شريعة الكنائس الشرقية والقانون التلموذي وقانون الأقباط اليهود والقانون الساساني في التشريع الديني الإسلامي، وهو في طور التشكّل لتظهر أثر ذلك في مذاهب القرن الثاني للهجرة.⁽⁵⁰⁾

3- لا يرى شاخت في اجتهادات مدارس الفقه الإسلامي سعيًا للتقرب من مراد الله، بل منافسة على سلطة معنوية ومعنوية ومن ثمة الحاجة إلى تغليفها بالركائز الصلبة من الدين:

يقول شاخت: العراقيون حوّلوا منذ زمن مبكر جدا في أثناء القرن الثاني للهجرة عبارة سنة النبي من سياقها السياسي الكلامي إلى سياق تشريعي، وتولّوا مآهاها مع السنة ومع العمل الذي أضفيت عليه المثالية لطائفة من الناس في منطقة ما، ومع تعاليم علمائها، وكانت العبارة تخبر عن حقيقة مقرّرة غير أنّها لم تكن تدلّ ضمّنياً على وجود أخبار محقّقة في شكل أحاديث، سيكون لها لاحقا انتشار بين الناس بما يعني أن الرسول كان قد أنشأ العمل المقصود أو أيّده عن طريق أقواله وأفعاله.

شاخت وغيره من المستشرقين يعتبرون الشام إحدى أهمّ بوابات مرور، ما اعتبروه الجذور المسيحية للإسلام، لذلك يكتفون الحفر عمّا يمكن استغلاله لتعضيد الفكرة، مستعينين بمن سبقهم كيوحنا الدمشقي الذي عدّ الإسلام هرطقة مسيحية. يقول شاخت:

4- قام أهل الشام باستعادة سنة النبي الذي كان مفهوما عراقي المنشأ، وكان تصوّرهم للسنة الحية يتمثّل في العمل المتّصل للمسلمين، الذي بدأ منذ عهد الرسول وحافظ عليه الخلفاء الأوائل والحكام اللاحقون، وأثبت صحّته العلماء، وفي المقابل كان المديّون نادراً ما يستعملون هذا المفهوم، في حين كان العراقيّون كذلك قليلا ما يستعملون لفظ عمل للدلالة على عادة ما جار.⁽⁵¹⁾

هذه أهم ركائز فرضيات شاخت في أحاديث الأحكام وحجّة السنة، فهو يريد هدم الثانية بإسقاط كل ركائزها في الحديث ورحلة استقراره في مدونات الحديث وكتب السيرة.

تاسعا: نماذج من ردود المسلمين

ردّ المسلمون على شبهات المستشرقين حول حجّية السنة هو أولاً واجب ديني، ثم هو واجب علمي، لأن أخطاء المستشرقين يمكن تصنيفها إلى الأخطاء في فهم الدين الإسلامي كعقائد، وهذا يمكن إيعازه إلى عدم استعداد قبلي، تكوّن من تراكمات عدا تاريخي متأصل، ولكن هناك أيضاً شقّ الأخطاء العلمية، التي يكون الفيصل فيها المنهج والتحليل والنقد المؤسّس، وقد اعتمد علماء المسلمين في ردودهم على عدّة مناهج معتمدة في الغرب كالمناهج التفكيكي والتحليلي والاستردادي والنقدي: درسوا الشبهة وحلّوها مصدرّيّتها وأسسها، وفكّكوها إلى عناصرها الأولى: من اعتماد مصدر إسلامي انتقائياً قصدياً إلى فهم مغرض إلى استنتاج متسرّع غير منطقي ثم قام علماء الإسلام برد الأمور إلى نصابها بتقديم الأدلّة العقلية الملزمة لكل ذي عقل والأدلّة الثقلية التي يجب أن تحترم من كل ذي مبدأ علمي وأخلاقي.

أ. من نماذج الردود الإسلامية:

1. عبد الحليم محمود في: السنة ومكانتها في المجتمع.
2. ومحمد أمان الجامي في: السنة ومنزلتها في التشريع الإسلامي.
3. صالح أحمد رضا وظاهرة رفض في: السنة وعدم الاحتجاج بها.
4. عبد الغني عبد الخالق في: حجّية السنة.
5. محمد محمد أبو شهبة في: دفاع عن السنة وردّ شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين.
6. عماد الدين خليل في: مقارنة في منهج المستشرق البريطاني وكتابه محمد في مكة.
7. عماد الدين خليل في: المستشرقون والسيرة النبوية.
8. أحمد ضياء العمري في: موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية.
9. حاكم عبيسان المطيري في: تاريخ وتدوين السنة وشبهات المستشرقين (موير و جولدسيهر وشاخت و روبنسون).
10. محمد عجاج الخطيب في: تدوين السنة.
11. حبيب الرحمان الأعظمي في: نصره الحديث في الرد على منكري الحديث.
12. مناظر أحسن كيلا في: تدوين الحديث.
13. ساسي سالم الحاج الفصل الثاني من الباب الثاني من كتابه نقد الخطاب الاستشراقي خصصه.
14. وهناك ردود متفرّدة على مقالات أو كتب بعينها أو محاور من السنة.

ملاحظة عن بعض الردود: الذين تصدوا لشبهات المستشرقين حول حجّية السنة وصحّة أحاديث الأحكام. شبهات المستشرقين يضعون المستشرقين ومن تبعهم من المنتمين إلى الجغرافية الإسلامية في كفة

ميزان حق واحدة، ولكن هناك من وسع من دائرة الطائفة الثانية بطريقة فيها بعض العنت، إذ شملت أسماء، رغم اجتهداتها لم تخرج عما هو معلوم من الدين بالضرورة ولم تقترب من مناطق غي المستشرقين.

ب. نموذج كتاب " السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي " لمصطفى بن حسني السباعي.⁽⁵²⁾

الكاتب من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وقد خصّص الباب الثاني من كتابه للردّ على

شبهات المستشرقين:

الباب الثاني: في الشبه الواردة على السنة في مختلف العصور:

الفصل الأول: السنة مع الشيعة والخوارج.

الفصل الثاني: السنة مع المعتزلة والمتكلمين.

الفصل الثالث: السنة مع منكري حجيتها قديما.

الفصل الرابع: السنة مع منكري حجيتها حديثا.

الفصل الخامس: السنة مع من ينكر حجية خير الآحاد.

الفصل السادس: السنة مع المستشرقين.

الفصل السابع: السنة مع بعض الكاتبين حديثا.

مما جاء في الكتاب في تتبع شبهات المستشرقين والردّ عليها بالحكمة والمنهجية:

1- ما لخصه مصطفى السباعي: وقصارى القول: جولدسيهر ان عنى بالعلماء الذين وقعت الخصومة بينهم وبين الأمويين. أتهم هم زعماء الخوارج والعلويين فنعم، ولكن هذا لا علاقة له بالعلماء الذين دأبوا على نشر السنة وحفظها وتنقيتها...

وهل كان علماء المدينة وضاعين؟ كما ألمح لذلك جولدسيهر في كتابيه دراسات إسلامية والعقيدة والشرعية في الإسلام، مضيفا على شبهته أن علماء المدينة هم الذين بدأوا بحركة الوضع ليقاوموا الأمويين. يردّ السباعي إذا فعل هذا علماء المدينة فه كانوا هم كل علماء الإسلام في ذلك العصر، ويذكر أسماء صحابة وتابعين وعلماء كبار كانوا موجودين في المدن الإسلامية بداية بمكة.⁽⁵³⁾

2- يوضح مصطفى السباعي حقيقة يتعمد المستشرقون إنكارها: لقد تتبّع علماؤنا الوضعيين في الحديث، ورموهم بالزندقة والفسوق، فلم يعجب المستشرق هذا الوصف، بل أطلق عليهم لقب العلماء الأتقياء، ثم زاد على ذلك أنّ مقرّهم كان في المدينة، وما كان في المدينة حقا إلا كل عالم وتقي، ولكن بالمعنى الذي يفهمه المسلمون: من العلم والتقوى، وهو الاجتهاد في دين الله والصدق في شريعته، ومحاربة الكذابين والوضاعين، لا بالمعنى الذي يفهمه هذا المستشرق: وهو الدس في حديث رسول الله والافتراء عليه دفاعا عن دينه.⁽⁵⁴⁾

3-يركّز بعض المستشرقين على ظاهرة الوضع في الحديث، وقد درسها العلماء المسلمون من أوّل ظهورها وحاربوها بباقة من العلوم المنهجية الدقيقة، وهو ما يشرحه مصطفى السباعي ويعطي في التفاصيل أمثلة من تاريخ السنة لا يسع المجال هنا ذكرها:

يقول جولدتسيهر: إنه لا توجد مسألة خلافية سياسية أو اعتقادية إلا ولها اعتماد على جملة من الأحاديث ذات الإسناد القوي. والرد عليه هو:

أهذا هو الدليل على أن الحكومة الأموية هي التي دعت إلى الوضع؟ لماذا لا يكون وضع هذه الأحاديث في المسائل الخلافية من وضع المذاهب المختلفة نفسها؟ ولماذا لا يكون لهذه الأحاديث المختلفة سبب إلا الوضع، لقد ذكر العلماء وجوها كثيرة لأسباب اختلاف الحديث: منها تعدّد وقوع الفعل الذي حكاه الصحابي مرتين في طرفين مختلفين، فيحكي هذا ما شاهده في ذلك الطرف.

ومنها أن يفعل النبي الفعل على وجهين إشارة إلى الجواز، فيروي صحابي ما شاهده في الحالة الأولى، ويروي الثاني ما شاهده في الحالة الثانية... ومنها اختلافهم في حكاية حال شاهدها من رسول الله ﷺ مثل اختلافهم في حجة الرسول، هل كان فيها قارنا أو مفردا أو متمتعا، وكل ذلك حالات يجوز أن يفهمها الصحابة من النبي، لأن في القرآن أو التمتع أو الإفراد مما لا يطلع عليه الناس.

ومنها اختلاف الصحابة في فهم المراد من حديث النبي، فهذا يفهم الوجوب، وذلك يفهم الاستحباب.

ومنها أن يسمع الصحابي حكما جديدا ناسخا للأول، ولا يكون الثاني قد سمعه، فيظل يروي الحكم الأول على ما سمع.

وقصارى القول أن علماءنا بينوا أسباب اختلاف الحديث، فما كان مرجعه إلى الوضع بيّنه، وما كان مرجعه إلى غير ذلك بيّنه أيضا، وقد صنّفوا فيه كتباً قيّمة، من أشهر من ألف فيه الإمام الشافعي، وابن قتيبة، والطحاوي وغيرهم، فالزعم بأن ذلك دليل على وضع الأحاديث المختلفة كلها زعم باطل، وأشدّ منه بطلانا أن يتخذ ذلك دليلا على تدخل الحكومة الأموية في الوضع ودعوتها إليه.⁽⁵⁵⁾

4- يردّ مصطفى السباعي على شبهة طالت عالما مسلما خدم الحديث والسنة، مفادها فساد دّمته لعلاقاته بالأمويين الذين يدينونهم جولدسيهر بالجمل يقول السباعي موردا أدلة عقلية مستندة إلى دقائق تاريخية ملزمة لأي مجادل عن الإمام الزهري: "إن المستشرق يصوّر لنا عصر بني أمية عصر ظلم وجور، وأن الأتقياء من علماء المدينة كانوا يحاربونهم ويزورون عنهم، ونحن نعلم أن الزهري نشأ بالمدينة وأخذ عن شيوخها، فلماذا لم يبغضه علماؤها؟ لماذا لم يكذبوه لو صحّ أنّه كذب للأمويين؟ لماذا لم يتبرأ منه شيخه سعيد وهو الذي لم يبال بعبد الملك في سطوته وجبروته؟ ما الذي دعاهم إلى السكوت عنه؟ أهو

الخوف؟ لم يكونوا يعرفون خوفا في نقد الرجال، من الخليفة إلى أقل رجل في المجتمع، وهب أنهم خافوه، فلماذا لم ينقده العلماء في دولة بني العباس؟ لماذا لم يهاجمه أنصار بني العباس، كما هاجموا خلفاء بني أمية وأمرأهم وأعوأهم؟ لماذا سكّت عنه علماء الجرح والتعديل". (56)

5- بيّن مصطفى السباعي أن بين العلماء المسلمين منذ القدم جدل داخلي حول بعض الجزئيات الخاصة بتحسين السنة وحجّيتها، ولكنّه جدل الحريصين الأحياء الذين لا يتوقف اجتهداهم فيما هو فريضة عليهم من حماية الدين والعقل: يقول مصطفى السباعي: لا نزاع بين العلماء في أن نصوص السنة على ثلاثة أقسام:

أولا: ما كان مؤيدا لأحكام القرآن، موافقا له من حيث الإجمال والتفصيل

ثانيا: ما كان مبيّنا لأحكام القرآن من تقييد مطلق، أو تفصيل مجمل، أو تخصيص عام، كالأحاديث التي فصلت أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والبيوع والمعاملات التي وردت مجملة في القرآن، وهذا القسم هو أغلب ما في السنة، وأكثرها ورودا.

ثالثا: ما دلّ على حكم سكّت عنه القرآن، فلم يوجبه ولم ينهه، كالأحاديث التي أثبتت حرمة الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وأحكام الشفعة...

ولا نزاع بين العلماء في القسمين الأولين، أي في ورودهما وثبوت أحكامهما وكونهما الغالب على أحاديث السنة، إنما اختلفوا في الثالث أي الذي أثبت أحكاما لم يثبتها القرآن ولم ينهها - بأي طريق كان ذلك؟ أعن طريق الاستقلال بإثبات أحكام جديدة؟ أم عن طريق دخولها تحت نصوص القرآن ولو بتأويل؟. (57)

6- دور النبي في التبليغ التشريعي، يوضّحه مصطفى السباعي في تذكير المستشرقين بما يعلمونه حتما وينكرونه عمدا: أحدهما: ما أنزل الله فيه نص كتاب، فبيّن رسول الله مثل ما نص الكتاب. والآخر: ما أنزل الله فيه جملة كتاب، فبيّن عن الله معنى ما أراد.

هنا يختلف العلماء في بيان ذلك على خمسة طرق:

الطريقة الأولى: أن القرآن دلّ على وجوب العمل بالسنة، فكل عمل بما جاءت به السنة عمل بالقرآن. (عبد الله بن مسعود)

الطريقة الثانية: وهي الطريقة المشهورة عند العلماء أن الكتاب مجمل والسنة مفصّلة له، كالأحاديث الواردة في بيان ما أجهل ذكره من الأحكام حسب كفايات العمل أو أسبابه أو شروطه، أو موانعه أو لواحقه فبانها للصلوات على اختلافها في مواقيتها وركوعها وسجودها وسائر أحكامها. (58)

الطريقة الثالثة: وهي النظر إلى المعاني الكلية التي يقصدها التشريع القرآني في مختلف نصوصه، وتفصيل ذلك أن القرآن جاء بتحقيق السعادة للناس في حياتهم الدنيا والأخرى.

هذه الأمور الثلاثة ومكملاتها قد جاء بها القرآن الكريم أصولاً يندرج تحتها كل ما في القرآن من أحكام، وقد جاءت بها السنة تفريعاً عن الكتاب وتفصيلاً، فجميع نصوص السنة ترجع بالتحليل إلى هذه الأصول الثلاثة.

الطريقة الرابعة: أن القرآن قد ينص على حكمين متقابلين ويكون هنالك ما فيه شبه بكل واحد منهما، فتأتي السنة وتلحقه بأحدهما أو تعطيه حكماً خاصاً يناسب الشبهين، وقد ينص القرآن على حكم بشيء لعلّه فيه فيلحق به الرسول ﷺ ما وجدت فيه العلة، عن طريق القياس⁽⁵⁹⁾.

7- ويختتم مصطفى السباعي تصنيف العلماء للسنة حتى يذكر المستشرقين بما قد قرأوه وأنكروه أو أصروا على تحريفه، وربما لم يستوعبوه لتسرعهم في الأحكام والبحث عن إرضاء الغرور وضمان المكان بين حراس التراث الاستشراقي، ويمكن حتى افتراض عدم الفهم لأن الفهم الصحيح يتطلب الكثير من الجلد والمراجعة ربما هذا ما أدى بالسباعي إلى القول: بقي من السنة ما خرج مخرج القصص والأمثال والمواعظ، وهذه منها في ما يكون تفسيراً لما ورد في القرآن ومنها ما لا يقع موقع التفسير، وليس فيه تكليف باعتقاد ولا عمل، فلا يلزم أن يكون له أصل في القرآن، ومع هذا فهو جار مجرى القصص القرآني في الاعتبار من حيث الترغيب والترهيب فيعود إلى القسم الأول⁽⁶⁰⁾.

8- وحول قضية النسخ التي يتخذها بعض المستشرقين وأتباعهم باباً للطعن في حجّة السنة يوضح مصطفى السباعي:

1.8 نسخ السنة بالكتاب: قال الجمهور: أن ذلك جائز، وقد وقع فعلاً، ومثلوا لذلك بأمثلة عدة: نسخ استقبال القبلة.

2.8 نسخ الكتاب بالسنة: هناك رأيان بين العلماء ولكل رأي أدلته⁽⁶¹⁾.

الحنفية: يجوز نسخ الكتاب بالسنة المتواترة والمشهورة، ولا ينسخ بحديث الآحاد.

وقال الجمهور: لا يجوز نسخ الكتاب بالسنة: سواء كانت متواترة أو مشهورة أو آحاداً.

ج. نموذج مصطفى الأعظمي في رده على شاخت:

ج1: من خلال كتاب دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه⁽⁶²⁾: كتاب الأعظمي حسب عنوانه الواضح هو في تاريخ السنة والإشارة إلى شبهات المستشرقين جاء عرضاً، ولكن للأعظمي دراسة مستقلة في كتاب جماعي.

يشرح الأعظمي خصائص كتابه: في مقدمة نسخته العربية:

1- كتبت هذا البحث باللغة الانجليزية إلى جامعة كمبرج لنيل درجة الدكتوراه، وذلك في أكتوبر 1966. أحمد الله على أن وقّفتني لتقدمه في ثوبه العربي لناطقي اللغة العربية أملاً أن أتمكن من دحض بعض الشكوك والشبهات التي أثارها الكتاب حول السنة النبوية في الشرق والغرب، بسبب جهلهم من ناحية، وسوء فهمهم للموضوع من نواحي أخرى.

2- في الترجمة العربية تمّ التحليّ عن الإيجاز الذي كان في البحث باللغة الانجليزية، والبحث باللغة الانجليزية كان مركزاً وموجزاً وخالياً من النصوص، والاكتفاء بالإشارة إلى النصوص الواردة في المراجع الموثوق به.

3- النسخة العربية مؤيدة بنصوص صريحة واضحة خصوصاً في الفصول التي تتعلق بكتابة الأحاديث في وقت مبكر.

4- إضافة الباب الأول الذي تخلو منه الطبعة الانجليزية يتناول مفهوم السنة ومكانتها في الإسلام.⁽⁶³⁾ يلاحظ اعتراف مصطفى الأعظمي أن النسخة الانجليزية كانت موجزة ومبتورة من الكثير من الشواهد، وخالية من الأساس النظري للموضوع والذي يرتبط بيقينيات المسلم من جهة، وبخصائص تطوّر علوم حماية السنة وحجّيتها، والغالب أن هذه شروط الجامعة والمشرّف المكتفين ربما بما عندهم من كتابات المستشرقين حول محاور موضوع حجّة السنة، وما يدور في فلكها، معتبرين ذلك السقف الذي يمكن الوصول إليه ولم يكونوا مشغولين بالإضافة التي يمكن أن تسهم بها جهود مصطفى الأعظمي في التقويم وفتح الآفاق الجديدة، دون إغفال تجميع الدراسات السابقة للمستشرقين.

يشرخ مصطفى الأعظمي مسار عمله انطلاقاً من مسلماته الاعتقادية ودراساته العلميّة للتراث الإسلامي وتراث المستشرقين، إذ يقول:

" دواوين الأحاديث النبويّة هي المستودع الأمين للسنة النبويّة، التي هي المصدر الثاني الأساسي للتّشريع الإسلامي، وهي إلى جانب ذلك مراجع أصيلة هامة في البحث عن قضايا الشؤون الإسلامية من عقيدة وشريعة وحضارة، وخاصة في أدوارها الأولى، ومن هنا تتجلى أهمية دراسة الأحاديث النبويّة، إذ لا يقتصر أثرها على فرع واحد من فروع الحضارة الإسلامية، بل يتعدّى ذلك فيشمل كافة الأسس الحضارية الإسلامية.⁽⁶⁴⁾

يقدم مصطفى الأعظمي تشخيصه لحالة دراسة الحديث والسنة عند المستشرقين مما يساعد الباحث المسلم الراصد لاتجاهاتها بفهم خلفياتها وأبعادها:

يقول الأعظمي: " لقد أنفق المستشرقون وقتاً غير قليل في الدّراسات الأدبيّة والتّاريخيّة وغيرها من الموضوعات، ولكنهم لم يتّجهوا إلى دراسات الأحاديث النبويّة إلا في وقت متأخّر، ولعلّ أوّل محاولة لها

أهميتها، وربما تكون آخرها هي ما قام به المستشرق الذائع الصيت اغناس غولتسهر، الذي نشر نتيجة بحثه سنة 1890 بعنوان: دراسات إسلامية بالألمانية، وأصبح كتابه في دائرة الاستشراق إنجيلا مقدساً، وبعد مضي ستين عاما بالتقريب على نشر ذلك الكتاب، أمضى شاخت حوالي عشر سنوات في التّقيب في معادن الأحاديث الفقهيّة، ونشر نتائج بحثه في أصول القانون المحمدي.⁽⁶⁵⁾

ويشرح مصطفى الأعظمي ما لا يمكن التصريح به في الجامعات الغربية: " وخلاصة الكتاب ليس هناك حديث واحد صحيح وخاصة الأحاديث الفقهيّة، ويتحوّل الكتاب إلى إنجيل ثاني، بل فاق شاخت سلفه غولديسهر من نظرة التشكيك عند الأوّل واليقين في عدم صحّتها.

لم تنشر بحوث في السنة بأقلام المستشرقين في غضون ثلاثة أرباع قرن ماعدا هذين الكتابين، اللهم إلا عدّة مقالات وبعض كتب أخرى، تعالج موضوع الحديث النبوي من بعيد... كان يُتوقّع من روبسون، الذي ترجم مشكاة المصابيح والمدخل للحاكم إلى اللغة الانجليزية والذي عدّل فيه بعض آراء المستشرقين الخاطئة، أن يسهم في هذا الميدان ويقترّب من الحقيقة، لكنّه أصبح هو أيضاً مسحوراً بكتابات شاخت.⁽⁶⁶⁾

مصطفى الأعظمي يرسم خريطة تاريخية لظهور منكري حجّة السنة في الجغرافية الإسلامية بقوله:

- 1- منهم من فسّر السنة بمعنى الأمر المجتمع عليه في الأوساط العلميّة، وأنه ليس معناها سنة النبي.
- 2- ومنهم من طعن في حجّة السنة النبوية وقيمتها التشريعية.
- 3- ومنهم من ادّعى تأخّر كتابة الأحاديث إلى قرن أو قرون، ثم استنتج من ذلك أنّه لا يمكن الاعتماد عليها لأنّ الذاكرة بضعفها الطبيعي لا بد أن تكون قد خانت في نقلها الأحاديث شفاهاً.
- 4- منهم من أثار الارتباب في الأسانيد وقيمتها العلميّة.
- 5- ومنهم من ادّعى أنّها وجدت بشكل بدائي في نهاية القرن الأوّل ثم تطورت.
- 6- وهناك من قال أنّها بدأت في القرن الثاني واكتملت في القرن الثالث.
- 7- وهناك من قال كيف نقبل الأحاديث ونعتبرها صحيحة، وقد بلغ عددها سبعمائة ألف ألم يكن للنبي شغل شاغل إلّا الكلام فقط.
- 8- ومنهم من قال الأحاديث الموجودة بأيدينا لا تصل إلى مائة ألف فأين بقية الرّصيد المدعي.
- 9- ومنهم من قال لقد انتشر الكذب في الحديث، فبلغ في عهد البخاري حدا لم يجد بسببه إلا حديثاً واحداً صحيحاً من كل مائة وخمسين، فممكّن إذن الاختيار من هذه الأحاديث كما فعل البخاري نفسه
- 10- منهم غلام أحمد البرويز الذي قال أن الأحاديث لم تكن إلا مؤامرة أعجميّة على نقاوة الإسلام وصفائه وبساطته...

11- تجمّعت الكثير من هذه الأفكار في كتابات شاخت.⁽⁶⁷⁾

هذه أهم محاور ومداخل الطاعنين في حجّية السنة، وهي تتوسّع على عصور مختلفة ومشارب مختلفة قد تتطابق أفكار مدعي من الجغرافية الإسلامية من القرون الأولى مع مستشرق من القرن العشرين. مصطفى الأعظمي يبيّن أن عمليات الرصد للشبهات وتصنيفها وتفكيكها إلى عناصرها الأولى ودراسة خلفيّات قائلها ومن ثمّ إبطال مفعولها وتجريدها من أي توصيف علمي، كل هذا دعاه إلى القول: " ونظراً لما أثير حول السنة النبويّة من اعتراضات، وما بذر في طريقها من تشكيكات، أصبح البحث في الأحاديث النبويّة ودواوينها أمراً لازماً وواجباً لأنّ الإسلام وحضارته ومستقبله يقوم على هذا الأساس... إذا كنا بصدد الحديث عن السنة وحفظها من قبل المسلمين، فإننا نريد أن نتلمّس موقف القرآن من السنة النبويّة، ومن موقف المسلمين ونظرهم إليها، والمنزلة التي تحتلّها من نفوسهم، فإذا تحقّق لنا عظم المنزلة وبألف الاهتمام بشأها، ذهبنا نلتبس ذلك في الوسائل التي اتّبعوها في الحفاظ عليها والعناية بها... ويقود ذلك إلى دراسة الأوضاع والملابسات التي كانت تمرّ بها عمليّة الكتابة والتعليم، ثمّ ننظر ما مدى استفادتهم من تلك المعطيات في المحافظة على السنة وتدوين الأحاديث النبويّة، مع انعدام المانع الذي قد يعوّقهم عنها."⁽⁶⁸⁾

هذا هو المشروع اللائق بمن يريد مواجهة حروب اليقين الشرسة بالسلاح المنهجي والعلمي، رغم صعوبته وعدم اعتراف بعض المسلمين بأهميّة هذه الحروب الدفاعية وهذه الكارثة.

ج2: نماذج من ردود الأعظمي عبر جزء من كتاب جماعي: كتاب "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية"⁽⁶⁹⁾

الكتاب الجماعي شمل على العناصر التالية المرتبطة بموضوع المحاضرة:

الفصل الثاني: المستشرق شاخت والسنة النبوية محمد مصطفى الأعظمي.

الفصل الثالث: المستشرقون والسيرة النبوية، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري وات: عماد الدين خليل.

الفصل الرابع: منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ: جعفر شيخ إدريس.

الفصل الثاني: المستشرق شاخت والسنة النبوية محمد مصطفى الأعظمي. يعرض مصطفى الأعظمي شبهات شاخت ويردّها بالتعليق والإبطال:

1- فكرة شاخت: في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقهاء الإسلامي في معناه الاصطلاحي وجود كما كان في عهد النبي، والقانون الشريعة من حيث هي هكذا كانت تقع خارجة عن نطاق الدين، وما

لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي روحي على تعامل خاص في السلوك، فقد كانت مسألة القانون تمثل عملية لامبالاة بالنسبة للمسلمين...

يعلق مصطفى الأعظمي: " هذه النظرية جوهرية ومركزية وأساسية بالنسبة لكل كتابات شاخت، فإذا كانت الشريعة أو القانون تقع خارجة عن نطاق الدين، كان النبي ﷺ غير مكترث لها وكذلك المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين، إذن فلن يكون هناك اهتمام في هذا المجال وإن وجد كان شيئاً مؤقتاً وآنيّاً. ليستنتج شاخت: من الصعوبة اعتبار حديث ما من الأحاديث الفقهية صحيح النسبة إلى النبي. (70)

2- لاشك أن ادعاء عدم اكتراث النبي والصحابة والتابعين بالتشريع، ووقوع التشريع خارج نطاق الدين وعدم صحة حديث واحد من الأحاديث الفقهية المنسوبة إلى النبي، ينتج عن هذا أهداف مقبولة ومطلوبة من أعداء الإسلام، تتمثل في الاستنتاج الشاخص التالي ما يشرحه الأعظمي: ما يسمى بالفقه الإسلامي ليس هو الفقه الإسلامي المبني على كتاب الله وسنة رسول الله، لأنه لا يوجد ما يمكن تسميته سنة النبي، بل إن جزءاً غير قليل من الفقه الإسلامي مأخوذ من شرائع اليهود والكنيسة وديانات أخرى، عدا اجتهادات المجتهدين. وعلى هذا يمكن للمسلمين أن يقتبسوا من القوانين الوضعية الغربية ما أرادوا دون أن يشعروا بأدنى ضيق من مخالفتهم لدينهم، وإن أرادوا أن يسموا تلك القوانين بالفقه الإسلامي فلا مانع في ذلك ولهم، فيمت عمل سلفهم من قبل أسوة. (71)

3- ملاحظة مصطفى الأعظمي على تسمية أصول الشريعة المحمدية: هل بهذا الاسم يسمي المسلمون أنفسهم وشريعتهم؟

وهي ملاحظة منهجية تفضح النية المسبقة للمستشرقين ومقاصدهم النهائية، ولكن يجل التذكير أن هناك من يستخدمها في الفضاء الإسلامي بحسن نية وتبجيلاً لمقام النبي عليه الصلاة والسلام، لكن الله سبحانه والمسلمين.

4- يستنكر مصطفى الأعظمي إنكار المستشرقين و شاخت تحديداً لأي أصالة في التشريع والمبادئ الإسلامية، ويشدد في الاستنكار عندما يلاحظ كيف يجعل شاخت الإسلام مجرد منتفع، إن لم يكن سارقاً من تراث من سبقوه، وهي تهمة ذكرها القرآن الكريم على لسان الكفار، ويرد الأعظمي متحذراً سبيل الاقتناع المنطقي والعقلي فيقول: على الصعيد العقلي إننا نرى أن التغيير في مجتمع ما في قيمه الخلقية وثلثه العليا والتبديل في نظرتة الاجتماعية، يفرض التغيير في القوانين والأنظمة والأعراف... إذا كان الأمر كذلك في عالم القوانين، أفلا يكون مستغرباً تماماً إن لم يأت الإسلام بنظامه التشريعي لأمة قطعت صلتها تماماً بما كان سائداً في الجاهلية من العقائد. لقد أنشأ أعرافاً وتقاليدهم لم تكن موجودة في المجتمع وألغى الإسلام الشيء الكثير من الأعراف والتقاليد والتعامل في الحياة، وأحل محله ما هو أحسن منها

وحتى ما أبقاه من الأمور الخيرة الحسنة التي كانت موجودة في الجاهلية، فقد أعطاها عمقاً آخر ووجهة أخرى وربطها بالعقيدة .

5- ويستنتج الأعظمي بيسر أن المستشرق له أهداف غير عرض الحقيقة، مما يجعله محلّ اتهام من أي باحث منصف، إذ يقول الأعظمي: هذا الخلط عام وشائع عند عامة المستشرقين في كافة القضايا فهم لا يبحثون من وجهة نظر المسلمين بل يريدون أن يفرضوا وجهة نظرهم كأثما وجهة نظر المسلمين ثم يستنبطون أحكاماً غريبة.⁽⁷²⁾

6- ويقدم الأعظمي أسس البناء الإسلامي كما يوضحها القرآن الكريم والتي تحققت في علم الإنسان المسلم، لكن المستشرق يعاند ويحبد عن الحق. يقول الأعظمي: " فالآيات الكثيرة تبين: الإسلام والقرآن الكريم جاء بحقيقة جديدة في مجال التشريع كانت مطموسة في الجاهلية، وهي أن التشريع والتحليل والتحرير حق الله سبحانه وتعالى... والإسلام يطلب من متبعيه استسلاماً تاماً في شؤون الحياة كلها، وليس هناك جانب من جوانب الحياة خارج عن هذا المجال، فالقرآن جاء بتشريعات متعددة تشمل جوانب الحياة كلها. نفسه⁽⁷³⁾

7- مصطفى الأعظمي درس مرحلة الدكتوراه في جامعة بريطانية عريقة، وخبر عن قرب صرامة المراقبة المنهجية للبحوث والاجتهادات ودقة المتابعة العلمية لعرض الأفكار والتحليلات، لكنه يجد في بعض كتابات شاخت إن لم يكن في أغلبها خيانة علمية وأخلاقية للحقيقة في أجلى صورها، ثم يكشف تواطؤاً داخلياً بين المستشرقين، إذ يقول: " وقد رأينا كيف بنى شاخت نظريته الأم الأساسية، وهي وقوع الشريعة في الإسلام خارج نطاق الدين بمحض خياله الخصب، مع تجاهله التام للقرآن الكريم، وبذلك ارتكب خطأً منهجياً جسيماً، ولم يوافق على رأيه عدد من المستشرقين، والأمر المستغرب منه هو أن المستشرقين يعترض بعضهم على بعض أو يخالف بعضهم بعضاً في جزئيات أو أمور جوهرية، لكن صدى هذا الاعتراض كثيراً ما يبقى في محله ولا يتعدى إلى غيره إذا كان شاخت قد أخطأ في هذه القضية الأساسية، إذن كان من المفروض أن ترفض نتائجه في مجال السنة جملة وتفصيلاً، لكن الأمر على عكس ذلك.⁽⁷⁴⁾

8- يعيد الأعظمي التذكير بأهمية حجة السنة بعد التذكير بأن الإيمان بهذا عقيدة قرآنية، فالرسول هو المبلغ بالقرآن الكريم، والقرآن كما يركز الأعظمي في قوله: ملخص القول: الإسلام جاء بعقيدة في مجال التشريع تنص على أن الحرير والتحليل من حق الله سبحانه وتعالى وأنه طلب من المسلمين الخضوع التام لأوامر الله سبحانه، وأنه أنزل لهم من أصول التشريع ما يكفّ لسد حاجاتهم وتمثيلاً لأوامر الله سبحانه

كان رسول الله يقضي بين الناس كما كلف عددا من الصحابة للقيام بهذه المهمة وما مضى قرن إلا وظهرت الكتب الفقهية في بيئة بني أمية". (75)

في أدبيات أصول الفقه كما تبين سابقاً مبدأ: هل السنة تشرع، وناقش العلماء المسألة في دائرة ثواب الدين ومنطق العقل الصريح المستقيم، لكن المستشرقون ومنهم شاخ ت غرضهم من الإشارة إلى تشريع السنة أي تشريع الرسول، يريدون قطع السنة عن مصدرها الإلهي، فهم لا يعترفون بالنبوة ولا بعصمة النبي ولا بالوحي الذي جاء للنبي بالرسالة، فينقل الأعظمي فكرة شاخ ت المغرضة: " يقول شاخ ت أصبح النبي بالمدينة نبياً مشرعاً ولو أن سلطته لم تكن تشريعية فقد كانت للمؤمنين من الوجهة الدينية وللمنافقين من الوجهة السياسية. (76)

9- يحلل الأعظمي معالم الفكرة المركزية لشاخ ت حول حجية السنة ومصدريتها في التشريع فيقول: " يأتي شاخ ت بنظرية للوصول إلى الغاية التي يريدها ولا تكون تلك النظرية وليدة استقراء وبحث، بل أنه يضع الهدف أولاً ثم يخطط البحث بحيث يوصله إلى ذلك الهدف المنشود، ولكنه مجرد ما أن يتخطى تلك المرحلة ينسى أو يتناسى ما صاغه من النظريات فيأتي بكلام متناقض لأنه في حاجة إلى شيء آخر لا يصل إليه إلا بنظرية متناقضة، ولا يفكر قط كيف يجمع بين التقيضين، المهم هو الوصول إلى الهدف المنشود. مثلاً يخبرنا أن كافة المدارس الفقهية القديمة فضلاً عن أهل الكلام قاومت بشدة السنة النبوية كعنصر جديد دخيل في مجال فقههم، ثم يتحدث في محل آخر عن طريقة إثبات الوضع وتاريخه للأحاديث الفقهية فيقول أحسن طريق لإثبات أن حديثاً ما لم يكن له ثمة وجود في فترة ما هو إثبات أن الفقهاء لم يستعملوه في مناقشتهم في تلك الفترة، الأمر الذي كان لابد منه إن كان الحديث موجوداً. (77)

10- في نقد نظرية القذف الأعلى يقول الأعظمي: " بما أن شاخ ت يرى أنه لا يوجد حديث فقهي واحد صحيح وكل الأحاديث وضعت في القرنين الثاني والثالث، وبما أن الأسانيد الموجودة في الأحاديث تدعي أكثرها أن الأخبار نقلت عن طريق الأشخاص الموثوقين والمتصلين بعضهم ببعض من عهد المؤلفين في القرن الثالث إلى النبي، لذلك لابد أن يكون الجزء العلوي من الإسناد والمتصل برسول الله كذباً محضاً ... نجد أن لدى شاخ ت عدة أخطاء منهجية أهمها أنه انتخب مادة علمية من كتب الفقه والحديث لا تصلح لدراسة الأسانيد كمن يريد أن يعرف عقائد فرقة ما فعليه أن يرجع إلى الكتب المتخصصة لذلك الغرض، أما إذا رجع إلى كتب الأدب والقصص والروايات، فلن يحصل على بغيته بل يخرج بأفكار مشوشة (78)

11- يضطر الأعظمي إلى التذكير بتعمد الحيد عن الحقيقة العلمية في كتابات شاخ ت وأغلب المستشرقين، فهم يقرأون المصادر الإسلامية، بل يملكون ويحتكرون نسخاً نادرة من بعضها، قلما تكون

نتائج قراءاتهم لها بما يخالف مقدماتها الواضحة كما يعرضها علماء المسلمين، ويبدو الغضب المشروع بين ثنايا كلماته، لأن هؤلاء المستشرقين عقبة أمام الفهم الصحيح للإسلام. يقول الأعظمي: " والأمر الذي لا يرقى إليه الشك أنه كانت من وظيفة المحدثين الاعتناء بالأسانيد والمتون والفروق بين مختلف الروايات إن وجد، أما الفقهاء فكان همهم استنباط المسائل الفقهية، لذلك كثيرا ما كان الفقيه يكتفي بأدنى إشارة إلى الحديث، إذ يعرف تماما أن الحديث معروف لديه ولدى سامعه، وأما أصحاب السيرة والتواريخ، فهم أبعد وأبعد عن مناهج المحدثين كما هو واضح من كتاباتهم.⁽⁷⁹⁾

ويمكن القول أن جوزيف شاخت بابا، كما بين مصطفى الأعظمي وغيره من علماء الإسلام، له هدف واضح ملتزم بتحقيقه.

التقد الأعلى أو السند الخلفي الذي يتخذ شاخت لنفي نسبة الأحاديث والسيرة للنبي عليه الصلاة والسلام، يجعله جذرياً في كل بحثه عن مكونات الفكر الإسلامي، فالبحث عن المصادر يحرك تفكيره دون أن يتوقف عند حقائق منطقية أهمها:

- الإسلام لم يبدأ مع الرسول عليه الصلاة والسلام

- النبوات غير منحصرة في الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم

- الخالق عزوجل أودع في الإنسان فطرة سليمة بنقاوتها يتعرف الإنسان على الدين الحق.

فإذا وجدت في مكونات الإسلام عناصر موجودة في ثقافات ومنظومات عقدية سابقة، فما الذي يمنع الجزم أنها إما بقايا نبوات سابقة سلمت من التحريف، توافقت مع ما جاء في الإسلام، وما الذي يمنع من القول أنها ثمار عقل مستقيم وافق فطرة سليمة، تطابقت ثمارها مع صحيح الرسائل والنبوات؟ أما أدلة شاخت كلها فرضيات بناء على فهمه الخاص لخصائص التاريخ الديني والفكري للمسلمين، متجاوزاً أن هذا التاريخ لم يخل من جدل داخلي يعبر عن حيوية البناء الفكري للحضارة الإسلامية.

يفترض شاخت أن الأحاديث الموجودة في مدونات علماء المسلمين فيما بعد القرنين الأولين، لم تكن متداولة في الفضاء الإسلامي، ولم تكن سنداً في التفكير العملي للمسلمين وهم يسعون لتحسيد أحكام الله عزوجل في حياتهم ونوازل أفرادهم وجماعاتهم ومجتمعاتهم.

ويقفز تفكير شاخت بعد وضع هذه الفرضية الواهية، إلى التسليم القطعي أن الأحاديث وحجيتها من اختراع علماء فترة ما بعد القرنين الأولين، وبالتالي لا أساس لحجية السنة.

هذا البحث المستमित على إثبات تهمة "الاختلاق" على علماء المسلمين، إذا تم ربطه بعنوان كتابه: الفقه المحمدي، سهل على الباحث فهم الخلقة التي ينطلق منها شاخت والهدف النهائي الذي

يسعى إليه. فهو لا يعترف بدين إسلامي مصدره إلهي اصطفي الله نبيه محمد لإيصال رسالته، فبالنسبة لشاخص والمستشرقين، الإسلام نفسه من "اختلاق" النبي محمد ضمن صورة تحقيرية للرّسول عبر كتابات مستشرقين حاقدين، سعو لتقديم رسول الإسلام بما يتوافق مع أحقادهم وعنصريّتهم وخيانتهم للأمانة الأخلاقية والعلمية.

المستشرقون يتباهون بأنهم يضعون أيديهم على مناطق شائكة في مكونات الإسلام وأساسه، يذرون الرماد لإي عيون المهوورين الذين لا ينتبهون أن ذلك الشوك جزء من مجاهدات العقل والروح في الفكر الإسلامي، بحثا عن الحق وتمسكاً بنور الحقيقة، وها هو مصطفى الأعظمي يشير إلى بعض ذلك الشوك بعبارات واضحة:

1- رأينا في عصر الصحابة بعض الأشخاص الذين لم ينتبهوا لقيمة السنة النبوية وكانت تلك حوادث فردية ثم تطورت الأمور بعد ذلك، فقبيل نهاية القرن الثاني وجدت شرذمة أنكرت حجّة السنة كمصدر للتشريع، ووجدت طائفة أخرى أنكرت حجّة غير المتواتر منها.⁽⁸⁰⁾

ويضيف تحيينا للمتابعة:

2- في الأزمنة المعاصرة من منكري السنة محمد عبده إذا صحّ ما نقله عنه أبو رية في كتابه أضواء على السنة، وأبو رية وتوفيق الدسوقي رشيد رضا.⁽⁸¹⁾

وفي القارة الهندية:

3- في القارة الهندية: السيد أحمد خان، وعبد الله الجكرالوي، وأحمد الدين الامرتسري وغلّام أحمد برويز الذي أسّس جمعية باسم أهل القرآن انكار القيمة التشريعية للأحاديث، رفض أيضا أحاديث متواترة ككيفية الصلّاة والإكفاء بما جاء في القرآن.⁽⁸²⁾

يلخص مصطفى الأعظمي:

4- وجد قديما بعض الأشخاص أو بعض الفرق التي طعنّت في السنة النبوية، ولكنّها انتهت بنهاية القرن الثاني أو على الأكثر بنهاية القرن الثالث وما بقي لهم وجود، وقد استيقظت الفتنة مرة أخرى في القرن الماضي بتأثر من الاستعمار الغربي.⁽⁸³⁾

الاستعمار حقّق بتشجيع منكري حجّة السنة عدّة أهداف استراتيجية، أولها بداية هدم الدّين بدم ركيزة أساسية لقيامه، وتلك أمانهم، ولكن حقّقوا أيضا هدفاً آخر وهو تبرير إنكار الجهاد وضرورة طاعة المستعمر كأولي لأمر على ما يبدو؛ يقول الأعظمي:

5- لقد أنكر قلة قليلة من الناس حجّة السنة النبويّة وقيمتها التشريعية في القرن الثاني، وكان منشأ ذلك الجهل. كما وُجدت فئة أخرى أنكرت غير المتواتر منها، وقضي على هذه الفتنة بعد القرن الثاني، ثم قامت من جديد ولعلّها بتأثير من الاستعمار الغربي، فأنكر بعض الناس أحاديث الجهاد فقط، بينما أنكر البعض الآخر الأحاديث النبويّة جملةً وتفصيلاً متواترها ومشهورها وآحادها، والاتجاهات الحديثة في رفض السنة لا تخرج عن اتجاهات القرن الثاني واستدلالاتهم وما أشبه اليوم بالبارحة.⁽⁸⁴⁾

الخاتمة:

لا يجب أن نقدم التراث الإسلامي كأثر مرآة لحياة بشر معصومين فهم نقلوا كل الحالات الإنسانية، ومعلوم أن الجدل والخصومات العلميّة والشخصيّة تنعكس على تاريخ العلوم الإنسانية والاجتماعية في شقّها البعيد عن الوحي المعصوم، والمسلمون أولى بمواجهة الأسئلة التي تتعلّق بمثل هذه المنعرجات من التاريخ الروحي والفكري للمسلمين، لقطع الطريق أمام المستشرقين بجميع اتجاهاتهم، والعلمانيين أيضاً، خصوصاً وأنّه تخرّج من بطون الكتب القديمة وتعرّض أمام الناس اليوم، والعلماء كانوا يفضّلون بقائها بين المختصين.

وهذا التقليد موجود في تاريخ المسلمين لكنه بعيد عن الاستثمار الحقيقي. لقد أصبح العقل المسلم متعباً يريد القراءة السريعة والبحث المختصر الخالي من أيّ إشكالية حقيقية، تمسكاً بالسلامة، فتنتج إنتاج كثير خالي من الروح بنتائج هزيلة وضحلة وسطحية لا تثقل التفكير، أما قراءة كتب التراث فأصبح عمل دائرة الباحثين تضيق حوله يوماً بعد يوم، عكس المستشرقين الذي يجدون في البحث لأن مقاصدهم بعيدة وخططهم قويّة وخطيرة. كيف يمكن تقديم بحث في مثل هذه الظروف والشبهات تستشري والاتهامات تتطايّر، تمسّ الأمن الروحي للمسلم: عقيدته وأسسها ومصادرها، وتجد الشبهات المغلفة بروح علميّة خادعة، وعبر مختلف الوسائط، من يتبنّاها من المسلمين من مختلف الفئات أو إذا لم يتبنّاها أحدثت في عقيدته شروخاً يصعب رآبها.

فريضة ملاحق الشبهات قائمة إلى يوم الدين، فهي الجهاد العقدي والفكري وتتبع آثار تلك الشبهات في كل مفاصل حياة المسلم، صنو لفريضة الرصد ورأس الفرائض الردّ وإبطال الشبهات بالأدوات المنهجية الدقيقة التي تتفوّق على ما عند المستشرقين أنهم يألمون في البحث ولكنهم لا يرجون من الله ما ترجو.

النبي محمد ﷺ هو الذي اصطفاه الله ليبلغ آخر رسالته، فهو المبل بالقرآن والقدوة لتجسيد الدين عبر سيرته العطرة، لذلك المستشرقون خطّطوا لضرب الإسلام من خلال النبي ﷺ في شخصه وحياته وسنته ﷺ.

المصادر والمراجع:

1. ا. ي فنسك، كتاب مفتاح كنوز السنة، من انجاز: المستشرق الهولندي: نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، إدارة ترجمان السنة، لاهور، 1978.
- اجناس جولديسهر: العقيدة والشرعية في الإسلام: تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، تر. محمد يوسف موسى، علي حسن عبد القادر، عبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة- مكتبة المثنى، بغداد، ط.2.
- جوزيف شاخت: أصول الفقه المحمدي: تر. رياض الميلادي، وسيم كمون، مراجعة عبد المجيد شرقي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2018
- شافية صديق (محاضرات)، مؤسسة ورئيسة مشروع تخصص: دكتوراه التراث الإسلامي والاستشراق، جامعة الجزائر 1.
- عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين بيروت لبنان. 1984
- عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، عرض وتفنيذ ونقض مكتبة وهبة، القاهرة، 1420هـ-1999
- محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول، تحقيق أبي حفص بن العربي الأثري، دار الفضيلي-دار الفضيلة، الرياض، 1421
- مصطفى الأعظمي في رده على شاخت: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، 1980
- مصطفى بن حسني السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ل: (المكتب الإسلامي ودار الوراق، دمشق-بيروت، 1402هـ/1982م).
- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج، الجزء الأول، تونس، 1985.
- نجيب العتيقي، المستشرقون، دار المعارف المصرية-الاسكندرية، 1964. معجم أسماء المستشرقين ليحي مراد.

La critique des Hadiths par les penseurs musulmans contemporains, (XIXe-XXIe siècle)

- ¹ محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول، تحقيق أبي حفص بن العربي الأثري، دار الفضيلي-دار الفضيلة، الرياض، 1421/2000، 186/1.
- ² نفسه، ص.187.
- ³ تحقيق وتعليق الحسين ابث سعيد، منشورات البشير بن عطية، فاس، 2017/1438، 860/4 إلى 874.
- ^{4,6} محاضرات الدكتور شافية صديق، مؤسسة ورئيسة مشروع تخصص: دكتوراه التراث الإسلامي والاستشراق، جامعة الجزائر 1.
- ⁷ كتاب مفتاح كنوز السنة، من انجاز: المستشرق الهولندي: ا. ي فنسك، نقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، إدارة ترجمان السنة، لاهور، 1978.
- ⁸ مقدمة النسخة المعربة، ص.ع.
- ⁹ نفسه، ص.ن.
- ¹⁰ نفسه، ص.س.
- ¹¹ نفسه، ص.ف.
- ¹² نفسه، ص.ر
- ¹³ نفسه، ص.ت.
- ¹⁴ نفسه، ص.ث.

15 نفسه، ص.ض

16 نفسه، ص.ض

17 La critique des Hadiths par les penseurs musulmans contemporains, (XIXe-XXIe siècle)

18 عبد العظيم إبراهيم محمد المطعي، الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، عرض وتفنيد ونقض مكتبة وهبة، القاهرة، 1420هـ-1999

19 أحناس جولديسهر: العقيدة والشرعية في الإسلام: تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، تر. محمد يوسف موسى، علي حسن

عبد القادر، عبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة- مكتبة المثنى، بغداد، ط.2.

20 عبد الرحمن بدوي في موسوعة المستشرقين والعقيقي.

21 في كتابه دراسات محمدية.

22 أحناس جولديسهر: دراسات محمدية: فصول مترجمة من الصديق بشير نصر، نشرت في مجلة الدعوة الإسلامية الصادرة عن كلية الدعوة

الإسلامية، طرابلس-ليبيا، وهي مجلة إسلامية، ثقافية، علمية محكمة.

23 ع. 1991/8

24 ع. 1986/3

25 ع. 1993/10

26 ع. 1993/10

27 ع. 1993/10

28 1993/10

29 1996/13

30 محاضرات الدكتور شافية صديق في مقياس الطوائف الدينية، بكلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1.

31 عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، نجيب العقيقي، المستشرقون، يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين.

32 جوزيف شاخت: أصول الفقه المحمدي: تر. رياض الميلادي، وسيم كمون، مراجعة عبد المجيد شرقي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2018

33 نفسه، ص37

34 نفسه، ص75

35 نفسه، ص76

36 نفسه، ص102.

37 نفسه، ص122.

38 نفسه، ص172.

39 نفسه، ص177 و178

40 نفسه، ص179.

41 نفسه، ص180

42 نفسه، ص211.

43 نفسه، ص220

44 نفسه، ص232

45 نفسه، ص233 و234.

46 نفسه، ص241.

47 نفسه، ص324.

48 نفسه، ص327

49 جوزيف شاخت: مدخل مدخل الفقه المحمدي، ص35.

50 نفسه، ص37.

- 51 نفسه، ص 52
- 52 مصطفى بن حسني السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ل: (المكتب الإسلامي ودار الوراق، دمشق-بيروت، 1402هـ/1982م).
- 53 نفسه، ص 53.
- 54 نفسه، ص 226.
- 55 نفسه، ص 229.
- 56 نفسه، ص 243
- 57 نفسه، ص 414 و 415
- ص 422.
- 59 نفسه، ص. 423 و 424.
- 60 نفسه، ص. 427 و 428
- 61 نفسه، ص 429 إلى 432.
- 62 مصطفى الأعظمي في رده على شاخت: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، 1980
- 63 نفسه، ص. ج.
- 64 ص. ط.
- 65 ص. ي.
- 66 ص. ي.
- 67 (ص. ل و ص. و)
- 68 (ص. ل و ص. و)
- 69 مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج، الجزء الأول، تونس، 1985.
- 70 نفسه، ص 69.
- 71 نفسه، ص 71
- 72 نفسه، ص 78
- 73 نفسه، ص 78
- 74 نفسه، ص 79
- 75 نفسه، ص 80
- 76 نفسه، ص 81
- 77 نفسه، ص. 85 و 86)
- 78 نفسه، ص 104
- 79 نفسه، ص 105
- 80 نفسه، ص 22
- 81 نفسه، ص 26
- 82 نفسه، ص 26
- 83 نفسه، ص 25
- 84 نفسه، ص 29